بسم الله الرحمن الرحيم

الجزء الحادى عشر من تفسير القرآن الحكيم

(٩٤) يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ ، قُلْ لَا تَعْتَذِرُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكُمْ ، قَدْ نَبَّأَنَا اللهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ ، وَسَيَرَى اللهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٩٥) سَيَحْلِفُونَ بِاللهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ ، إِنَّهُمْ رِجْسٌ ، وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٩٦) يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ ، فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ

هذه الآيات بيان لما سيكون من امر المنافقين الذين تخلفوا في المدينة وما حولها عن غزوة تبوك مع الرسول ﷺ والمؤمنين بعد عودتهم اليهم ، قال عز وجل :

﴿ يعتذرون اليكم ﴾ يعتذر اليكم أيها المؤمنون أولئك الذين رضوا بأن يكونوا مع الخوالف وهم اغنياء أصحاء لاعذر لهم ﴿ إذا رجعتم اليهم ﴾ من سفركم هذا عن جميع سيئاتهم ﴿ قل ﴾ أيها الرسول لهم حينئذ ﴿ لا تعتذروا لن نؤمن لكم ﴾ ان نصدقكم

تصديق جموح وائتمان لكم بتلبسكم بالاسلام تحسينا للظن ، ولا عملا بالظواهر ،

ولماذا ؟ ﴿ قد نبأنا الله ﴾ بوحيه إلى رسوله المهم ﴿ من اخباركم ﴾ التي تسرونها في ضمائركم ، وهي مخالفة لظواهركم التي تعتذرون بها ، ونبأ الله هو الحق اليقين ومن عرف الحق لا يقبل الباطل ، ولا يصدق الكاذب ، ولم يقل « نبأني » وهو ﷺ المنبأ من الله وحده لان المراد انه أمره أن ينبيء بذلك أصحابه ، ولم يكن هذا النبأ خاصاً به . واعتذارهم للجميع يقتضي أن يعلموا أن الجميع عالمون بما فضحهم الله به ، وان كان المبلغ لهم هو الرسول ﷺ بما له من الرياسة ، وما لخبره من الثقة التي لا يشك فيها أحد ، والتأثير الذي يحسب له كل حساب ، فهو من قبيل التبليغات الرسمية العليا الصادرة عن الملوك والسلاطين ، دع كونه اسمى واعلى لأنه نبأ الرسول المعصوم عن الله عز وجل ﴿ وسيرى الله عملكم ورسوله ﴾ بعد الآن . وهو الذي يدل إما على الاصرار على النفاق ، وإما على التوبة والاذعان في الايمان ، الذي تترتب عليه الاعمال . وأما أقوالكم فلا قيمة لها وان أكدتموها بالأيمان . فان تبتم وأنبتم ، وشهد لكم عملكم بصلاح سريرتكم ، فان الله يقبل توبتكم ، ويعاملكم رسوله بما يعامل به المؤمنين الذين تشهد لهم أعمالهم باخلاصهم وصدقهم ، وان أبيتم إلا الاصرار على نفاقكم ، والاعتماد على نفاق سوق كذبكم بأعذاركم وأيمانكم ، فسيعاملكم رسوله بما أمره الله به في هذه السورة من جهادكم والاغلاظ عليكم كاخوانكم الكفار المجاهرين ، وعدم السماح لكم بالخروج معه أبداً ، ولا بان تقاتلوا معه عدواً ،

وما يتعلق بذلك من اهانة واحتقار ﴿ ثم تردون ﴾ من هذه الحياة على الذل والموت عليه ﴿ الى عالم الغيب والشهادة ﴾ الذي يعلم ما تسرون وما تعلنون ، وما تكتمون وما تظهرون . والغيب ما غاب عن المخاطبين علمه ، والشهادة

ما يشهدونه ويعرفونه[1] ﴿ فينبئكم بما كنتم تعملون ﴾ عند ما تحشرون وتحاسبون، ويجازيكم عليه بما تستحقون، وهو ما أوعدكم به في هذه السورة وفي غيرها كقوله (إن المنافقين في الدرك الاسفل من النار)

ومن الفقه في الآية ان من آداب الاسلام تحامي كل ذنب أو تقصير يحتاج فاعله الى الاعتذار، وورد في بعض الاحاديث المرفوعة «إياك وكل أمر يعتذر منه» رواه الضياء في الاحاديث المختارة عن انس وروى غيره مثله في أثناء حديث آخر

﴿ سيحلفون بالله لكم إذا انقلبتم اليهم لتعرضوا عنهم ﴾ سيؤكدون لكم اعتذارهم بالأيمان الكاذبة إذا انقلبتم وتحولتم اليهم من سفركم لاجل ان تعرضوا عن عتبهم وتوبيخهم على قعودهم مع الخالفين من النساء والاطفال والعجزة، وبخلهم بالنفقة، ولم يذكر المحلوف عليه للدلالة على شموله لكل ما يعتذر عنه

﴿ فأعرضوا عنهم ﴾ إعراض إهانة واحتقار، لا إعراض صفح وإعذار، وهذا التعبير من أسلوب الحكيم وهو قبول ما يبغون من الاعراض عنهم ولكن على غير الوجه الذي يرجونه منه بل على ضده، وقد علل الأمر بقوله ﴿ انهم رجس ﴾ أي قذر معنوي يجب الاعراض عنه تنزها عن القرب منه باشد مما يتنزه الطاهر الثوب والبدن عن ملابسة الارجاس والاقذار الحسية. وهذا بمعنى ماتقدم من قوله (٢٨ انما المشركون نجس) وسبق بيان معنى الرجس في تفسير آية (٥:٩٣ إنما الخمر والميسر) من سورة المائدة[2] ﴿ ومأواهم جهنم جزاء بما كانوا يكسبون ﴾ أي وملجؤهم الاخير نار جهنم جزاء بما كانوا يكسبون في الدنيا من أعمال النفاق التي دنست أنفسهم، والاعراض عن آيات الله الذي زادهم رجسا على رجسهم، كما تراه في الآية (١٢٥) الآتية

(١) تقدم تحقيق معنى الغيب المطلق والمقيد مفصلا في تفسير (٦ : ٥٠ و ٥٩) من الجزء السابع (٢) يراجع معنى الرجس منه في ص ٥٧ ج ٧

﴿ يحلفون لكم لترضوا عنهم ﴾ فتستديموا معاملتهم السابقة بظاهر اسلامهم ، وهذا غرض آخر وراء غرض الاعراض عنهم لا يهنأ عيشهم بدونه، ولا حظ لهم من إظهار الاسلام غيره ، ولو كان إسلامهم عن إيمان لكان غرضهم الاول إرضاء الله ورسوله كما تقدم في آية (٦٢ يحلفون بالله لكم ليرضوكم) الخ وليس لكم أن ترضوا عنهم وهذه حالتهم ﴿ فان ترضوا عنهم ﴾ فرضا وقد أعلمكم الله بحالهم ﴿ فان الله لا يرضى عن القوم الفاسقين ﴾ عن أمره منهم ولا من غيرهم ، فان هذا الفسوق سبب او علة لسخط الله تعالى فالحكم بعدم رضاه متعلق به لا بذواتهم وشخوصهم ، ومقتضاه أنه اذا فرض أن بعض المؤمنين رضي عنهم وآمن لهم باعتذارهم بعد النهي عنه كان فاسقا مثلهم ، محروما من رضائه تعالى ، كما أن من يتوب منهم ويرضي الله ورسوله يخرج من حدود سخطه عز وجل ويدخل في حظيرة مرضاته إذ لا يعد بعد ذلك فاسقاً. فأحكام الله العامة ووعده ووعيده تتعلق بالاعمال والصفات النفسية والبدنية لا بالذوات والاعيان ، ولو قال « فان الله لا يرضى عنهم » لما أفاد التعبير هذه الحقائق والمعاني ، بل كان يكون حكما على أفراد معينين ، مسجلا عليهم الموت على كفرهم وعدم قبول توبة أحدمنهم، وما أبعد هذا عن حكمة الله وعن هداية كتابه العزيز!

ولا ينافي هذا التحقيق ما يروى عن ابن عباس من نزول هذه الآيات في الجد بن قيس ومعتب بن قشير واصحابهما من المنافقين وكانوا ثمانين رجلا امر النبي ﷺ المؤمنين لما رجعوا الى المدينة بأن لا يجالسوهم ولا يكلموهم. اذ لا دليل على ان هؤلاء مقصودون من الآيات بذواتهم وشخوصهم كالذين نهى عن الاستغفار لهم وعلله بموتهم على كفرهم ، كعبد الله بن أبي، وقد قال قتادة ان هذه الآيات نزلت فيه ، فانه حلف للنبي ﷺ بعد عودته ان لا يتخلف عنه وطلب ان يرضى عنه فلم يفعل . والآيات اعم من هذا وذاك . وهي من أنباء الغيب بما فيها من بيان مقاصدهم الخفية ، وان كان الاعتذار والحلف من سجاياهم المعروفة . وأن من علامات النفاق كثرة الحلف، لشعور المنافق دائما بأنه متهم بالكذب

ويجب التنبه في هذا المقام لجهل فظيع وقفنا عليه بمذاكرة بعض المشتغلين بعلوم الدين التقليدية مخالف لهذه الآية وامثالها من كتاب الله تعالى وهو زعمهم أن ماعابه الكتاب الحكيم على المشركين والكافرين من أعمال الشرك والكفر كدعاء غير الله واتخاذ أولياء من دونه يقربونهم اليه ويشفعون لهم عنده فيما يطلبون من دفع ضر وجلب نفع مما لا ينال بالكسب فهو خاص بهم وبأوليائهم وشفعائهم، وان وقوع مثله من المسلمين لاينافي صحة إيمانهم، والاعتداد باسلامهم، للفرق الواضح بين من يدعو الاصنام والاوثان ويجعلها واسطة بينه وبين الله تعالى تشفع له عنده وتقربه اليه زلفى، ومن يدعو الانبياء والاولياء لذلك وهم عباد الله المكرمون، الذين لاخوف عليهم ولا هم يحزنون !!

جهل هؤلاء ان الشرك والكفر لا يختلف حكمه باختلاف متعلقه فمن يدعو مع الله صنما او كوكبا، كمن يدعو نبيا أو ملكا، على أن الاوثان والاصنام كانت تماثيل لذكرى بعض الاولياء والصالحين كالقبور المنسوبة إلى بعضهم نسبة صحيحة اومزورة، ولكن ماذا يقول هؤلاء الجاهلون المدافعون عن الشرك وأهله في أهل الكتاب الذين يدعون ويستغيثون الانبياء والصالحين، متوسلين بهم ومستشفعين، وهم الذين اتبع القبوريون من المسلمين سننهم في شركهم كما أخبر ﷺ بذلك تحذيراً وانذاراً بقوله « لتتبعن سنن من قبلكم » الحديث وهو متفق عليه وتقدم ذكره مراراً، وفصلت هذه المسألة في تفسير الآية (٣١ اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا) فيراجع تفسيرها (١)

ويذكر هؤلاء الجاهلون بالقرآن وتاريخ الاسلام فرقا آخر بين شرك المسلمين وشرك من قبلهم، وهو أن المشركين السابقين اتخذوا أوثانهم وأنبياءهم وأولياءهم آلهة وأربابا، وان المسلمين الذين يدعون الاولياء ويستغيثونهم في الشدائد طلبا لشفاعتهم لم يتخذوهم آلهة ولا أربابا وانما يتخذونهم وسائل ووسائط ويعتقدون انهم مخلوقون مثلهم

---

(١) صفحة ٣٦٣ من الجزء العاشر

والجواب عن هذا انه لا فرق بين عمل الفريقين إلا في التسمية ولكن من بعض الوجوه ، فمشركو العرب لم يكونوا يسمون أصنامهم أربابا بل كانوا يعتقدون ويقولون ان رب العالمين وخالقهم ومدبر أمورهم الذي يجير ولا يجار عليه هو الله وحده، لان هذا مقتضى لغتهم ، وإنما كانوا يسمونها آلهة لان الاله في لغتهم هو المعبود ، والمعبود هو من يتوجه اليه ويدعى فيما لا يقدر عليه الناس بكسبهم في دائرة الاسباب المعروفة لهم ، ويعظم ويتقرب اليه بالذبائح وغيرها لاجل ذلك، سواء كان سلطانه على النفع ودفع الضر بذاته لذاته وهو الله تعالى ، أو بشفاعته عند الله. وقد تقدم بسط هذا المعنى مرارا ، وسيعاد في تفسير سورة يونس للنصوص الصريحة فيه . فتسمية هذه العبادة لغير الله توسلا في عرف بعض الناس لا يخرجها عن حقيقتها ، ولا عن كون اسمها في اللغة العربية عبادة وهو ما كان يسميها به أهل هذه اللغة . وانما التوسل الشرعي التقرب الى الله تعالى بما شرعه من الاعمال الصالحة ، لا بالاهواء المبتدعة، ولا بالتقاليد المتبعة

---

(٩٧) ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ ، وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٩٨) وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَنْ يَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ ٱلدَّوَائِرَ . عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ ٱلسَّوْءِ ، وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٩٩) وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ ، وَيَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ قُرُبَاتٍ عِنْدَ ٱللَّهِ وَصَلَوَاتِ ٱلرَّسُولِ ، أَلَا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَهُمْ سَيُدْخِلُهُمُ ٱللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ ، إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ

هذه الآيات الثلاث في بيان حال الأعراب منافقيهم ومؤمنيهم، والظاهر انها قد نزلت هي وما بعدها الى آخر السورة بعد وصول النبي ﷺ والمؤمنين الى المدينة ، فهي بدء سياق جديد في تفصيل احوال المسلمين في ذلك العهد، بدىء

يذكر الاعراب من المنافقين لمناسبة ماقبله وفصل عنه لانه سياق جديد مع ما بعده.

﴿الاعراب أشد كفراً ونفاقا وأجدر أن لا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله﴾ بيان مستأنف لحال سكان البادية من المنافقين، لانهما يسئل عنه بعد ما تقدم في منافقي الحضر من سكان المدينة وغيرها من القرى. فالأعراب اسم جنس لبدو العرب، واحده أعرابي، والانثى اعرابية، والجمع اعاريب. والعرب اسم جنس لهذا الجيل الذي ينطق بهذه اللغة، بدوه وحضره واحده عربي. وقد وصف الاعراب بأمرين اقتضتهما طبيعة البداوة [الاول] أن كفارهم ومنافقيهم أشد كفراً ونفاقا من أمثالهم من أهل الحضر - ولاسيما الذين يقيمون في المدينة المنورة نفسها - لانهم أغلظ طباعا، وأقسى قلوبا، وأقل ذوقا وآدابا، — كدأب امثالهم من بدو سائر الأمم — بما يقضون جل أعمارهم في رعي الانعام وحمايتها من ضواري الوحوش. ومن تعدي أمثالهم عليها وعلى نسائهم وذراريهم، فهم محرومون من وسائل العلوم الكسبية، والآداب الاجتماعية [الثاني] انهم أجدر اي أحق وأخلق من أهل الحضر بأن لا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله من البينات والهدى في كتابه، وما آتاه من الحكمة التي بين بها تلك الحدود بسنن أقواله وأفعاله. وفهم ألفاظ القرآن اللغوية، لا يكفي في علم حدوده العملية. كان أهل المدينة وما حولها من القرى يتلقون عنه (ص) كل ماينزل من القرآن وقت نزوله، ويشهدون سنته في العمل به، وكان يرسل العمال الى البلاد المفتوحة يقيمون فيها يبلغون القرآن، ويحكمون بين الناس به وبالسنة المبينة له، فيعرف اهلها تلك الحدود التي حدها الله تعالى ونهاهم ان يعتدوها. ولم يكن هذا كله ميسوراً لاهل البوادي، وهم مأمورون بالهجرة، لاجل العلم والنصرة، لأن الاسلام دين علم وحضارة

فالاعراب اجدر بالجهل من الحضر بطبيعة البداوة لا بضعف أفهامهم، أو بلادة أذهانهم، او ضيق نطاق بيانهم، فقد كانوا مضرب الامثال في قوة الجنان، ولوذعية الاذهان، وذرابة اللسان، وسعة بيداء البيان، وعنهم أخذ رواة العربية اكثر مفردات العربية وأساليبها

والجدارة بالشيء قد تكون طبعية، وقد تكون باسباب كسبية، من فنية

وشرعية وأدبية ، وقد تكون باسباب سلبية اقتضتها حالة المعيشة والبيئة ، قيل انها مشتقة من الجدار وهو الحائط الذي يكون حداً للبستان أو الدار ، وقيل من جدر الشجرة ، ويرادف الجدير بالشيء والاجدر، الحقيق والاحق، والخليق والاخلق ، وقد يستعمل أفعل في كل منها للتفضيل مع التصريح بالمفضل عليه غالبا ، كحديث « والثيب أحق بنفسها من وليها » ومع تركه للعلم به أحيانا ، ومنه قوله تعالى (ورضوان من الله أكبر)

﴿ والله عليم حكيم ﴾ واسع العلم بامور عباده وصفاتهم وأحوالهم الظاهرة من بداوة وحضارة وعلم وجهل ، والباطنة من إيمان وكفر ، واخلاص ونفاق، تام الحكمة فيما يحكم به عليهم ، وما يشرعه لهم ، وما يجزيهم به ، من نعيم مقيم، أو عذاب أليم .

روى احمد وأصحاب السنن ـ ماعدا ابن ماجه ـ والبيهقي في الشعب عن ابن عباس يرفعه « من سكن البادية جفا ، ومن اتبع الصيد غفل ، ومن أتى السلطان افتتن » قال الترمذي هذا حديث حسن غريب لانعرفه إلا من حديث الثوري

وروى ابو داود والبيهقي عن ابي هريرة مرفوعا « من بدا جفا ، ومن اتبع الصيد غفل ، ومن أتى أبواب السلطان افتتن ، وما ازداد أحد من سلطانه قربا إلا ازداد من الله بعداً » وسبب الاخير ان السلاطين قلما يرضون عمن يلتزم الحق والصدق والنصح الصريح ، وقلما يأتيهم ويزداد قربا منهم الا المرائي الذي يمدحهم بالباطل ويعينهم على الظلم ولو بالتأول لهم ، وقد بينا هذا المعنى في تفسير

(٦١ ومنهم الذين يؤذون النبي ويقولون هو أذن)

﴿ ومن الاعراب من يتخذ ماينفق مغرما ﴾ تقدم في الآية [٩٠] ان بعض الاعراب جاءوا النبي ﷺ معذرين ليأذن لهم في القعود عن غزوة تبوك ، وذكر في هذه الآية حال الذين كانوا ينفقون بعض أموالهم في سبيل الجهاد رياء وتقية فيعدون ماينفقونه من المغارم وهي ما يلزمه المرء مما يثقل عليه فيلتزمه كرها اوطوعا لدفع مكروه عن نفسه أو عن قومه وليس له فيه منفعة ذاتية . ولم يكن هؤلاء الاعراب المنافقون يرجون بهذه النفقة جزاء في الآخرة لانهم لا يؤمنون بالبعث .

ولهذا قال الضحاك : يعني بالمغرم انه لا يرجو ثوابا عند الله ولا مجازاة وانما يعطي ما يعطي من الصدقات كرها .وعن ابن زيد انما ينفقون رياء اتقاء أن يغزوا ويحاربوا ويقاتلوا و يرون نفقاتهم مغرما [قال] وهم بنو أسد وغطفان

﴿ ويتربص بكم الدوائر ﴾ اي ينتظرون دوائر الزمان اي تصاريفه ونوائبه التي تدور بالناس وتحيط بهم بشرورها أن تنزل بكم فتبدل قوتكم ضعفا، وعزكم ذلا ،وانتصاركم هزيمة وكسراً ، فيستريحوا من اداء هذه المغارم لكم ، بالتبع للخروج من طاعتكم ، و لاستغناء عن اظهار الاسلام نفاقا لكم، كانوا أولا يتوقعون ظهور المشركين واليهود على المؤمنين، فلما يئسوا من ذلك صاروا ينتظرون موت النبي ﷺ ويظنون ان الاسلام يموت بموته صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله . وهكذا يعلل الجاهل الضعيف نفسه الخبيثة بالاماني والاوهام

واذا كان منافقو المدينة الذين هم أجدر من هؤلاء الاعراب أن يعلموا مافي الاسلام من القوة الذاتية،وما في اعتصام المؤمنين الصادقين به من القوة الحربية، كانوا يتربصون بالمؤمنين الهزيمة من الروم في تبوك ، وكانوا إن أصاب النبي ﷺ مصيبة مما لا يخلو عنه البشر يفرحون ويقولون (قد أخذنا أمرنا من قبل) أي احتطنا لهذه العاقبة قبل وقوعها ، فهل يستغرب مثل هذا التربص من الاعراب سكان البادية الذين يجهلون ماذكر ؟ (راجع تفسير الآيات ٥٠ ـ ٥٤ من هذه السورة)

﴿ عليهم دائرة السوء ﴾ دعاء عليهم بما يتربصونه بالمؤمنين،أو خبر بحقيقة حالهم معهم،ومآل الاحتمالين واحد،لان الخبر في كلامه تعالى حق ومضمونه كمضمون الدعاء واقع ،ماله من دافع ، والدعاء منه عز وجل يراد به مآله وهو وقوع السوء عليهم واحاطته بهم . والسوء بالفتح في قراءة الجمهور وهو مصدر ساءه الامر ضد سره ، وقرأه ابن كثير وابو عمرو ههنا وفي سورة الفتح بالضم وهو اسم لما يسوء . والاضافة: كرجل صدق وقدم صدق . وتقديم الخبر يفيد الحصر أي عليهم وحدهم الدائرة السوءى تحيط بهم دون المؤمنين الذين يتربصونها بهم ، فان هؤلاء لاعاقبة لهم تتربص بهم إلا مايسرهم ويفرحهم من نصر الله

وتوفيقه لهم ومايسوء أعداءهم من خذلان وخيبة وتعذيب لهم في الدنيا قبل الآخرة حتى بأموالهم وأولادهم ، كما تقدم في قوله تعالى (٥٢ قل هل تربصون بنا إلا إحدى الحسنيين) وقوله (٥٥ فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم)

﴿ والله سميع عليم ﴾ لايخفى عليه شيء من أقوالهم المعبرة عن شعورهم واعتقادهم في نفقاتهم إذا تحدثوا بها فيما بينهم ، وأقوالهم التي يقولونها للرسول او لعماله على الصدقات ، او لغيرهم من المؤمنين مراءاة لهم ، ولا من أعمالهم التي يعملونها ، ومن نياتهم وسرائرهم التي يخفونها ، فهو سيحاسبهم على ما يسمع ويعلم - اى على كل قول وفعل - ويجزيهم به

ولما ذكر حال هؤلاء الاعراب المنافقين عطف عليه بيان حال المؤمنين الصادقين منهم (١) فقال

﴿ ومن الاعراب من يؤمن بالله واليوم الآخر ﴾ إيمانا صادقا اذعانيا تصدر عنه آثاره من العمل الصالح . قال مجاهد: هم بنو مقرن من مزينة وهم الذين قال الله فيهم (٩٢ ولا على الذين إذا ما أتوك لتحملهم) الآية . وقال الكلبي : هم أسلم وغفار وجهينة ومزينة ، ونحن روايات أخرى فيهم ، والنص يشمل جميع المؤمنين الصادقين منهم ومن غيرهم من الاعراب . وقد ذكر من وصفهم ضد ماذكره في وصف من قبلهم في أمر النفقة في سبيل الله فقال ﴿ ويتخذ ماينفق قربات عند الله وصلوات الرسول ﴾ أي يتخذ ماينفقه وسيلة لأمرين عظيمين أولهما القربات والزلفى عندالله عز وجل، وثانيهما صلوات الرسول، أي أدعيته لانه ﷺ كان يدعو للمتصدقين ويستغفر لهم ، ولم يثبت في النص انتفاع احد بعمل غيره الا الدعاء وما يكون المرء سببا فيه كالولد الصالح، والسنة الحسنة يتبع فيها . فهذا

(١) مما تواتر عن جهلة الترك الذين يبغضون العرب انهم يحفظون قوله تعالى (الاعراب اشد كفرا ونفاقا) الآية ويظنون ان المراد بالاعراب جنس العرب فيعيرون به من يفاخرونهم منهم ولا يحفظون الآية التالية في مدح الاعراب ولا آية (والسابقون الاولون من المهاجرين والانصار) وهم صميم العرب !!

القصد في اتخاذ الصدقات ضد اتخاذ المنافقين إياها مغرما . والقربات كالقرب جمع قربة (بضم القاف) وهي في المنزلة والمكانة ، كالقرب في المكان والقرابة، والقربى في الرحم ، والاصل في الكل واحد وهو الدنو من الشيء مطلقا ، فقصد القربة في العمل هو الاخلاص وابتغاء مرضاة الله ورحمته ومثوبته فيه . وجميعها باعتبار تعدد النفقات ففيه إيماء الى اخلاصهم في كل فرد منها . والصلوات جمع صلاة ومعناها ، أو أحد معانيها في أصل اللغة الدعاء واطلاقها على العبادة المخصوصة من أركان الاسلام شرعي وجهه ان الدعاء هو روحها الاعظم لانه مخ العبادة وسرها الذي تتحقق به العبودية على أكمل وجوهها ، وهو في الفاتحة فريضة ، وفي السجود فضيلة ، ويأتي قريبا بيان هذه الصلوات على المتصدقين في تفسير الآية (١٠٣)

وقد بين الله تعالى جزاء هؤلاء الاعراب على ماشهد لهم به من صدق الايمان واخلاص النية في الانفاق في سبيل الله ، واداتهم به حق الله، وهو قصد القربة عنده، وحق الرسول وهو طلب دعائه لهم بقبول نفقتهم وإثابتهم عليها ، فقال باسلوب الاستئناف المشعر بالاهتمام ﴿ ألا انها قربة لهم ﴾ وهو إخبار بقبوله تعالى لنفقتهم مؤكد بافتتاحه باداة التنبيه الدالة على الاهتمام بما بعدها وهي (ألا) وبـ[إن] الدالة على تحقيق مضمون الجملة وبالجملة الاسمية فقوله تعالى [انها قربة] راجع الى النفقة الماخوذة من قوله [ما ينفق] فافراد القربة لأنها خبر لضمير المفرد

وقوله ﴿ سيدخلهم الله في رحمته ﴾ تفسير لهذه القربة والمراد بالرحمة هنا الرحمة الخاصة بمن رضي الله عنهم وهي هداية الصراط المستقيم وماتنتهي اليه من دار النعيم ، ومعنى إدخالهم فيها أن يكونوا مغمورين فيها وتكون هي محيطة بهم شاملة لهم، وهذا أبلغ من مثل (يبشرهم ربهم برحمة منه) والسين في قوله [سيدخلهم] لتأكيد الوعد وتحقيقه وتقدم مثله . وعلله بقوله : ﴿ ان الله غفور رحيم ﴾ أي واسع المغفرة والرحمة يغفر للمخلصين في أعمالهم ما يلمون به من ذنب أو تقصير ، ويرحم الصادقين في ايمانهم فيهديهم به إلى أحسن العمل وخير المصير، وفي الاية من بلاغة الايجاز مايدل على علو مقام هؤلاء الاعراب

(١٠٠) وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١٠١) وَمِمَّنْ حَوْلَكُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَى عَذَابٍ عَظِيمٍ (١٠٢) وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ

هذا تقسيم آخر للمؤمنين الصادقين والمنافقين من أهل الحضر والبدو جميعاً عطف على تقسيم الاعراب لمشاركته له في بيان حقيقة جماعات المسلمين في ذلك العهد، قال

﴿والسابقون الاولون من المهاجرين والانصار والذين اتبعوهم باحسان﴾ هذه طبقات ثلاث هي خير هذه الامة التي هي في جملتها خير أمة اخرجت للناس (فالاولى) السابقون الاولون من المهاجرين قيل هم الذين صلوا إلى القبلتين وروي عن أبي موسى الاشعري وسعيد بن المسيب وابن سيرين والحسن وقتادة وغيرهم. وقيل هم اهل بدر وروي عن محمد بن كعب وعطاء بن يسار، وقيل هم الذين شهدوا بيعة الرضوان في الحديبية وعليه الشعبي، ولكن هذا القول وما قبله في السابقين من المهاجرين والانصار جميعا: وأما السابقون من المهاجرين وحدهم فهم الذين هاجروا قبل صلح الحديبية لان المشركين كانوا الى ذلك الوقت يضطهدون المؤمنين في بلادهم ويقاتلونهم في دار الهجرة وما حولها، ولا يمكنون أحداً من الهجرة ما وجدوا إلى صده سبيلا، ولا منجاة للمؤمن من شرهم إلا بالفرار أو الجوار، فالذين هاجروا قبل صلح الحديبية وجاهدوا بأموالهم

وأنفسهم كانوا كلهم من المؤمنين الصادقين ، ليس فيهم منافق كما قلنا من قبل ؛ إذ لم يكن للنفاق في ذلك الوقت مقتض ولا سبب ، ولا للهجرة والجهاد داع غير الاخلاص في الايمان وإقامة بناء الاسلام ، وإن كان هؤلاء يتفاضلون في السبق وفي غيره من الاعمال ، فأفضلهم الخلفاء الاربعة فسائر الذين بشرهم النبي ﷺ بالجنة بأشخاصهم ، وما كل سابق أفضل من كل مسبوق ، ومن السابقين بالايمان من سبقه غيره بالهجرة ، وأول من آمن على الاطلاق خديجة [رض] لانه ﷺ بلغها خبر بعثته قبل كل أحد فصدقت وآمنت ، ويليها من كان معه ﷺ في بيتها ، وهم علي وكان ابن ١٠ سنين ، وزيد بن حارثة ، ومن خارجه أبو بكر الصديق [رض] والمشهور انه اول من آمن من الرجال ، ولا خلاف في أنه آمن عند ما دعاه النبي ﷺ بغير ادنى تريث او تردد ، ولا في انه أول المهاجرين مع الرسول كما تقدم في تفسير آية الغار ، وأول الدعاة إلى الاسلام مع النبي ﷺ

(الطبقة الثانية) السابقون الاولون من الانصار وهم الذين بايعوا النبي ﷺ عند العقبة في منى في المرة الاولى سنة احدى عشرة من البعثة وكانوا سبعة ، وفي المرة الثانية وكانوا سبعين رجلا وامرأتين ، ويليهم الذين آمنوا حين قدم عليهم أبو زرارة مصعب بن عمير بن هاشم من قبل النبي ﷺ يقرئهم القرآن ويفقههم في الدين وارسله مع اهل العقبة الثانية سنة اثنتي عشرة من البعثة وكذا من آمن عند قدوم النبي ﷺ وقبل أن تكون للمسلمين قوة غالبة تتقى وترجى ، وهذه القوة رسخت عقب هجرته ﷺ وصار بعض أهل المدينة يظهرون الاسلام نفاقا بدليل قوله تعالى في الآيات التي نزلت في شأن غزوة بدر وكانت في السنة الثانية (٨ : ٤٩ إذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض غر هؤلاء دينهم) ولم يكن فيهم أحد من المهاجرين ولا من الانصار السابقين وان كانوا كلهم من الأوس والخزرج

(الطبقة الثالثة) الذين اتبعوا هؤلاء السابقين الاولين من المهاجرين والانصار في الهجرة والنصرة اتباعاً باحسان ، أو محسنين في الافعال والاقوال ، فتضمن هذا القيد الشهادة للسابقين بكمال الاحسان لانهم صاروا فيه أئمة متبوعين ، وخرج به من اتبعوهم في ظاهر الاسلام مسيئين غير محسنين في هذا الاتباع وهم المنافقون ،

ومن اتبعوهم محسنين في بعض الاعمال ومسيئين في بعض وهم المذنبون والآيات الآتية مبينة حال الفريقين

هؤلاء الطبقات الثلاث ﴿ رضي الله عنهم ﴾ في إيمانهم وإسلامهم واحسانهم، وأعلاه ما كان من هجرتهم وجهادهم، فقبل طاعاتهم، وغفر سيئاتهم، وتجاوز عن زلاتهم، اذ بهم اعز الاسلام، ونكل باعدائه من المشركين واهل الكتاب

﴿ ورضوا عنه ﴾ بما وفقهم له، وأسبغه عليهم من نعمه الدينية والدنيوية، فأنقذهم من شرك، وهداهم من ضلال، وأغناهم من فقر، وأعزهم من ذل.

﴿ وأعد لهم جنات تجري تحتها الانهار خالدين فيها ذلك الفوز العظيم ﴾ تقدم مثل هذا الوعد الكريم في الآية (٧٢) وفي آيات أخرى ومعناه ظاهر، وأي فوز اعظم من نعيم الجنة الخالد من بدني وروحاني؟

قرأ الجمهور (والانصار) بالخفض عطفا على المهاجرين وقرأها يعقوب بالرفع عطفا على (السابقون) وروي عن الحسن البصري، بل روي أيضا — وفيه نظر عندي — أن عمر (رض) قرأها كذلك مع جعل (الذين اتبعوهم) صفة للانصار وأنكر على رجل قرأها بالخفض فأخبره انه تلقاها عن أبي بن كعب كاتب الوحي وجامع القرآن، فسأل عمر أبيا فصدقه وأخبره انه هكذا سمعها من النبي ﷺ، وفي رواية أنها هكذا أنزلها الله على جبريل ونزل بها جبريل على قلب رسول الله ﷺ قال عمر : لقد كنت أرى انا رفعنا رفعة لا يبلغها أحد بعدنا — يعني المهاجرين الاولين — فقال ابي : تصديق هذه الآية في أول سورة الجمعة (وآخرون منهم لما يلحقوا بهم وهو العزيز الحكيم)

ولفظ الاتباع فيها نص في الصحابة المتأخرين الذين اتبعوا الاولين من المهاجرين والانصار في صفتيهم :الهجرة والنصرة، وهو بصيغة الماضي فلا يدخل في عمومه التابعون الذين تلقوا الدين والعلم من الصحابة ولم ينالوا شرف الصحبة والهجرة والنصرة وتسمية هؤلاء بالتابعين اصطلاحية حدثت بعد نزول القرآن وانتقال النبي ﷺ الى الرفيق الاعلى

وقد ورد ذكر الطبقات الثلاث من الصحابة في آخر سورة الانفال وعبر فيه عن الطبقة الثالثة بقوله (٨: ٧٥ والذين آمنوا من بعد وهاجروا وجاهدوا معكم فأولئك منكم) وذكرت في تفسيرها آيات سورة الحشر وقد عبر فيها عن الطبقة الثالثة بقوله (٥٩ : ١٠ والذين جاءوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولاخواننا الذين سبقونا بالايمان) الخ [1] ولا شك في مشاركة سائر المؤمنين لاولئك الصحب الكرام في رضاء الله وثوابه بقدر اتباعهم لهم في الهجرة ان وجدت اسبابها والجهاد بالاموال والانفس لنصرة الاسلام ، ومنها نصرته بالحجة والبرهان . وفي سائر اعمال البر والاحسان ، وان الآيات تدل على ذلك في كل موضع لان الجزاء في حكم الله الحق وشرعه العدل على الاعمال ، وللسابقين في كل عصر فضيلة السبق والامامة في كل عصر ، ويمتاز عصر الرسول الذي وجد فيه الاسلام وأقيم بنيانه ، ورفعت أركانه ، ونشرت في الخافقين أعلامه ، على كل عصر بعده ، وهم الاقلون المقربون كما قال تعالى (٥٦ : ١٠ والسابقون السابقون ١١ أولئك المقربون في جنات النعيم ١٢ * ثلة من الاولين ١٣ * وقليل من الآخرين)

هذه الشهادة من رب العالمين للطبقات الثلاث من أصحاب رسول الله ﷺ يدمغ حقها باطل الروافض الذين يطعنون فيهم ، ويحثو التراب في افواههم ، والذي سن لهم هذا الطعن في جمهورهم الاعظم عبدالله بن سبأ اليهودي الذي أظهر الاسلام لاجل ايقاع الشقاق بين المسلمين وإفساد أمرهم ، ثم نظم الدعوة لذلك زنادقة المجوس بعد فتح المسلمين لبلادهم ، كما بيناه مراراً . ثم جعل الرفض مذهباً ، له فرق ذات عقائد ، منها ماهو كفر صريح ، ومنها ماهو ابتداع قبيح . ومنها ماهو دون ذلك .

وروي عن أبي صخر حميد بن زياد قال أتيت محمد بن كعب القرظي فقلت له ماقولك في أصحاب رسول الله ﷺ ؟ فقال : جميع أصحاب رسول الله ﷺ في الجنة محسنهم ومسيئهم . فقلت من أين تقول هذا ؟ قال اقرأ قول الله تعالى (والسابقون الاولون من المهاجرين والانصار ـ الى أن قال ـ رضي الله عنهم ورضوا

[1] راجع ص ١١٣ ج ١٠

عنه) وقال (والذين اتبعوهم باحسان) شرط في التابعين شريطة وهي أن يتبعوهم في أفعالهم الحسنة دون السيئة . قال أبو صخر: فكأني لم أقرأ هذه الآية قط

والتحقيق ماقلناه، فان هذه الآيات وما بعدها في بيان حال المسلمين في عهد النبي مؤمنيهم ومنافقيهم ، ومحسنيهم ومسيئيهم، والذين خلطوا منهم عملا صالحا وآخر سيئاً ، والذين تاب الله عليهم والذين ارجأ توبتهم . وهذه الآية نص في أن الطبقات الثلاث من السابقين الاولين والذين اتبعوهم في الايمان والهجرة والجهاد عند ما ابيحت الهجرة وتيسرت أسبابها بصلح الحديبية قد فازوا كلهم برضاء الله ووعده لهم بالجنة ، وأنه ليس فيهم احد من المنافقين بل كان جميع المنافقين من أهل المدينة وما حولها الى ان فتحت مكة واعتق النبي ﷺ أهلها وأظهروا الاسلام والسيوف تقطر من دمائهم فكان منهم المنافقون، وضعفاء الايمان المقلدون ،وهم الذين كانوا سبب الهزيمة في حنين كما تقدم في تفسير الآيات ٢٥-٢٧ ثم حسن اسلام الاكثرين ، ففتحوا الفتوحات ونشروا الاسلام في العالمين

وجملة القول أن جميع افراد هذه الطبقات الثلاث ، قد جازوا القنطرة واستبقوا الصراط ، وما عاد يؤثر في كمال إيمانهم شيء،لان نورهم يمحو كل ظلمة تطرأ على أحد منهم بإلمامه بذنب . واذا كان بعض المحدثين يقول:ان من اتفق الشيخان على تعديله في الرواية – أي اعتمدا عليه في اصولها المسندة – قد جاز قنطرة الجرح ، فماذا يقال فيمن عدلهم الله عز وجل، وشهد لهم بأنه رضي عنهم ورضوا عنه؟ وسيأتي ان الله تعالى تاب على المذنبين والمقصرين وغفر لهم

وللشيخ محيي الدين بن عربي مناظرة مع نفسه بسطها في كتابه (روح القدس) ذكر فيها انه في أثناء مجاورته بمكة المكرمة حدث لنفسه من الاعجاب بعبادتها ومعرفتها مادعاه الى مناظرتها واقامة الحجة عليها بغرورها ، فعرضها أولا على القرآن ، فاعترفت بضعفها عن بلوغ ماقرره من أوج الكمال ، فعرضها على سيرة النبي ﷺ فاعتذرت بحديث عائشة « كان خلقه القرآن »وهو مايعجز عنه من دونه

كل انسان ، فعرضها على فضائل الصحابة فأقرت بعجزها عن الرجحان في هذا الميزان ،ومسابقة من رباهم المصطفى بكتاب الله وآياته ،وزكاهم بحكمته فاقتبسوا نوره من مشكاته ، ولكنها أبت أن تعترف لكبار التابعين بمثل هذا السبق ، وكان له معها حجاج في أويس القرني هو من اعلى حقائق علم النفس [١]

﴿ وممن حولكم من الاعراب منافقون ومن أهل المدينة ﴾ بعد أن بين تعالى حال كملة المؤمنين كلهم قفى عليه بذكر مردة المنافقين من أهل البدو والحضر، وعطفهم عليهم من باب عطف الضد على الضد ،فهو يقول ان بعض الاعراب الذين حولكم أيها المؤمنون منافقون . قال البغوي وهم من مزينة وجهينة واشجع وأسلم وغفار، كانت منازلهم حول المدينة ،أي كما كان فيهم مؤمنون صادقون دعا لهم النبي ﷺ - وان من أهل المدينة نفسها منافقين أيضا من الاوس والخزرج غير من أعلم الله رسوله بهم في هذه السورة بما صدر عنهم من الاقوال والافعال المنافية الايمان ، وقد وصف هؤلاء بقوله ﴿ مردوا على النفاق ﴾ أي مرنوا عليه وحذقوه حتى بلغوا الغاية من اتقانه وجعله بحيث لا يشعر أحد به لاتقانهم جميع الامارات والشبهات التي تدل عليه . يقال مرد على الشيء يمرد (كقعد يقعد) مرودا اذا مرن عليه . واذا عتا واشتد فيه حتى يتعذر ارجاعه عنه . ومن الأول الغلام الامرد الذي لم ينبت الشعر في وجهه ، والشجرة المرداء التي لاورق فيها، ومنه مرد الشيء تمريداً اذا صقله وملسه حتى صار أملس لاحرشة فيه ولا خشونة ومنه (صرح ممرد من قوارير) قل في اللسان وتأويل المرود ان يبلغ الغاية التي تخرج من جملة ماعليه الصنف . ثم قال : والمرود على الشيء المرون عليه ، ومرد على الكلام أي مرن عليه لايعبأ به [أي لايعنى أن يتكلف له] قال الله تعالى (ومن أهل المدينة مردوا على النفاق) قال الفراء يريد مرنوا عليه وجربوا ، كقولك تمردوا ،وقال ابن الاعرابي المَرْدُ التطاول بالكبر والمعاصي ومنه قوله (مردوا على النفاق) أي تطاولوا اه

(١) ويجده مقتني المنار في المجلد الثاني منه

﴿ لا تعلمهم نحن نعلمهم ﴾ أي لا تعرفهم أيها الرسول بفطنتك ودقة فراستك التي تنظر فيها بنور الله لحذقهم في التقية وتجنب مثارات الشبهة، وأكد هذا النفي باثبات العلم بأعيانهم له وحده عز وجل، ولعلهم أخفى نفاقاً وأشد تقية ممن قال فيهم (٤٧: ٢٨ أم حسب الذين في قلوبهم مرض أن لن يخرج أضغانهم ٢٩ ولو نشاء لأريناكهم فلعرفتهم بسيماهم، ولتعرفنهم في لحن القول)

فهؤلاء ممن لم يعلمه الله باعيانهم كما أعلمه بمن اشير اليهم في الآية [٧٤] ولا فضحهم باقوال قالوها ولا بافعال فعلوها كما فضح غيرهم في هذه السورة، لانهم بمرودهم على النفاق يتحامون مايكون شبهة على إيمانهم، فضرره قاصر عليهم، وحكمة اخباره تعالى إياه بذلك أن يعلموا هم ان الله عليم بما يسرون من نفاقهم، ويحذروا ان يفضحهم كما فضح غيرهم، ليتوب المستعد للايمان منهم وهو في ستر الله تعالى قبل أن ينجز ما أوعدهم بقوله ﴿ سنعذبهم مرتين ﴾ أي في الحياة الدنيا احداهما مايصيبهم من المصائب وتوبيخ الضمائر، وانتظار الفضيحة بهتك استار السرائر، ومايتلو ذلك من جهادهم اذا ظهر نفاقهم كغيرهم، والثانية آلام الموت وزهوق أنفسهم وهم كافرون وضرب الملائكة وجوههم وأدبارهم عند موتهم، فأقرب ما يفسر به العذاب مرتين هو ماتقدم في تفسير الآيات ٥٥ و٧٣ و ٧٤ و ٨٢ و٨٣ ففيه بيان لكل مايصيب المنافقين في الدنيا من عذاب الوجدان الباطن، وعذاب من يفتضح أمرهم في الظاهر، وورد في التفسير المأثور أقوال في هاتين المرتين بعضها في معنى ماذكرنا وبعضها مردود ومتناقض.

﴿ ثم يردون إلى عذاب عظيم ﴾ أي في الآخرة وهو عذاب جهنم، وهم في الدرك الاسفل منها كما تقدم.

جاء في كتب التفسير المأثور ان رسول الله (ص) خطب الناس مرة فحمد الله واثنى عليه ثم قال «ان منكم منافقين فمن سميته فليقم» ثم قال قم يافلان — حتى سمى ٣٦ رجلا، فان صح فهو عدد الذين سبق تهديدهم في هذه السورة لظهور نفاقهم دون الذين مردوا على النفاق، ولكن لم يرو لنا ماكان من امر هؤلاء بعد هذه الفضيحة بكفرهم ومنعهم من الصلاة، ومقتضاه ان تجري عليهم احكام المرتدين، ومثل هذا لايخفى وتتوفر الدواعي على نقله بالتواتر اوالاستفاضة ولم يرو

لنا المحدثون شيئا فيه والذي اراه ان الرواية غير صحيحة والله اعلم

والعبرة في هذا السياق أن هؤلاء المنافقين فريقان: فريق عرفوا باقوال قالوها وأعمال عملوها ، وفريق مردوا على النفاق وحذقوه حتى صار أملس ناعما لا يكاد يشعر أحد بشيء يستنكره منه فيظهر عليه ، وكل من الفريقين يوجد في كل عصر ، ولا سيما منافقي السياسة في هذا العهد ، ، وهم الذين اتخذهم الاجانب المعتدون على بلاد الاسلام دعاة وولائج وأعوانا على استعباد أمتهم واستعمار أوطانهم ، فما من قطر من هذه الاقطار التي رزئت بالاجانب الا ولهم فيها أعوان وأنصار من أهلها يزعمون انهم يخدمون أمتهم ووطنهم من طريق استمالتهم واسترضائهم ، وانهم لولاهم لما وقفوا من الظلم وهضم الحقوق عند الحد الذي هم عليه ، ومنهم من يخدمون الاجانب خدما خفية لا تشعر بها الامة لانهم مردوا على النفاق ، وانما يحتاج الخونة الخادمون للاجانب الى النفاق ، وتلبيس خيانتهم واخفائها بالكذب والاختلاق ، اذا كان للرأي العام فطنة وقوة يخشونها ، وأما البلاد التي استحوذ عليها الجهل والضعف فلا يبالي الخائنون برضاء أهلها ولا بسخطهم

واشد المنافقين مرودا وأتقانا للنفاق اعوان الملوك والامراء المستبدين ، وشرهم واضرهم الذين يلبسون لباس علماء الدين

﴿ وآخرون اعترفوا بذنوبهم ﴾ أي ومنهم آخرون أو ممن حولكم من الاعراب ومن أهل المدينة أناس آخرون ليسوا من المنافقين ، ولا من السابقين الاولين ، ولا من الذين اتبعوهم باحسان لا إساءة فيه ، بل من المؤمنين المذنبين

﴿ خلطوا عملا صالحاً وآخر سيئا ﴾ أي خلطوا في اعمالهم بأن عملوا عملا صالحا وعملا سيئا ، وقيل معناه خلطوا صالحا بسيء وسيئا بصالح ، او خلطوا في كل منهما ماليس منه فكان ناقصا ولكنه لم يغلب الآخر ويندغم فيه ، فلم يكونوا من الصالحين الخلص ولا من الفاسقين أو المنافقين ، ذلك بأنهم آمنوا وعملوا الصالحات ، واقترفوا بعض السيئات ، وهم أو منهم بعض الذين تخلفوا عن النفر والخروج إلى غزوة تبوك من غير عذر صحيح كالضعفاء والمرضى وغير الواجدين ، ولا استئذان كاستئذان المرتابين ، ولا اعتذار كاذب كالمنافقين ، ثم كانوا ناصحين لله في أثناء قعودهم ،

شاعرين بذنبهم ، خائفين من ربهم ، فكان كل من قعودهم ونصحهم مقترنا بالآخر ، كالذي يدخل أرضا مغصوبة فيصلح فيها ، ويعترف بأنه مذنب بدخولها ، ويأتي بالاصلاح لتكفير ذنب الاعتداء . وهذا المعنى لا يؤديه قولك : خلط العمل الصالح بالسيء ، كما تقول خلط القمح بالشعير أو الماء باللبن ، لان هذا الضرب من الخلط يصير فيه المخلوط والمخلوط به شيئا واحداً أو كالشيء الواحد فلا يقول صاحبه عندي ماء فرات ولا لبن محض وأما الضرب الاول المراد من الآية فقد بقي فيه كل من النوعين ممتازاً بنفسه ، وإنما خلطه مع الآخر عبارة عن الجمع بينهما ، وعدم انفراد أحدهما دون الآخر ، والواو العاطفة هي التي تؤدي هذا المعنى من الجمع ، وهو من دقائق بلاغة القرآن بالعدول عن التعدية بالباء إلى العطف

﴿ عسى الله أن يتوب عليهم ﴾ أي هم محل الرجاء لقبول الله توبتهم ، التي يشير الى وقوعها اعترافهم بذنوبهم ، وقد تقدم (في ص ٢١٠ ج ١٠) ان كلمة « عسى » وضعت للتقريب والاطماع ثم استعملت في الرجاء كامل ، وقول بعضهم انها من الله للايجاب غير صحيح ، او لتوفيقهم للتوبة الصحيحة التي هي سبب المغفرة والرحمة . وانما تتحقق التوبة بالعلم الصحيح بقبح الذنب وسوء عاقبته ، وألم الوجدان من تصور سخط الله والخوف من عقابه ، والاقلاع عن الذنب أو الذنوب بباعث هذا الالم الذي هو ثمرة ذلك العلم ، والعزم على عدم العود إلى اقترافها ، ثم العمل بضدها ، ليمحى من النفس أثرها ، والروايات صريحة بأن اعتراف من ذكر بذنوبهم قد استتبع كل هذا

﴿ ان الله غفور رحيم ﴾ تعليل لرجاء قبول توبتهم ، إذ معناه انه كثير المغفرة للتائبين ، واسع الرحمة للمحسنين ، كما قال (٢٠ : ٨٢ وإني لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحا ثم اهتدى) وكما قال (٧ : ٥٦ إن رحمة الله قريب من المحسنين) وكما قص علينا من خبر استغفار الملائكة للمؤمنين قولهم (٤٠ : ٧ ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلماً فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك وقهم عذاب الجحيم ـ إلى قوله ـ ٨ وقهم السيئات ، ومن تق السيئات يومئذ فقد رحمته)

قال بعض العلماء ان هذه الاية أرجى آية في القرآن وقال آخرون أرجى الآيات قوله تعالى (٣٩ : ٥٣ قل يا عبادي الذين اسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من

رحمة الله ان الله يغفر الذنوب جميعا انه هو الغفور الرحيم) وانما هذا علاج لمن اشتد عليهم الخوف من اسرافهم في شهواتهم، حتى كادوا يقنطون من رحمة ربهم، لا للمصرين على ذنوبهم بغير مبالاة، ولذلك قال بعدها (٥٤ وانيبوا الى ربكم واسلموا له من قبل أن يأتيكم العذاب ثم لا تنصرون) الى آخر الايات

ومن العبرة في هذه الاقسام المسلمين ان قسم الذين خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا يوجد في كل زمان ومكان، كقسم الذين اتبعوا السابقين الاولين من المهاجرين والانصار، وأما المهاجرون والانصار الاولون الذين أقام الرسول صلى الله عليه وسلم بهم بناء الاسلام فهم الذين لا يلحق بهم قرين، ولا يلحقهم لاحق من العالمين، ولعل أكثر المسلمين الصادقين في هذا الزمان من الذين خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا، ولعل أسوأ سيئاتهم ترك الجهاد بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله، فيجب أن يسترشدوا بهذه الآية، وبما ورد في سبب نزولها من توبة أبي لبابة وأصحابه. ولا تتم العبرة بها، الا بتدبر ما بعدها، وهو تطهير النفس من النفاق وضعف الايمان، ببذل الصدقات وغيره من صالح الاعمال

وقد روى البخاري في تفسير الآية في صحيحه عن سمرة بن جندب مرفوعا «أتاني الليلة (أي في النوم) ملكان فابتعثاني فانتهيا بي الى مدينة بلبن ذهب ولبن فضة فتلقانا رجال شطر من خلقهم كأحسن ما أنت راء، وشطر كأقبح ما أنت راء. قالا لهم اذهبوا فقعوا في ذلك النهر، فوقعوا فيه ثم رجعوا الينا قد ذهب ذلك السوء عنهم فصاروا في أحسن صورة، قالا لي هذه جنة عدن وهذا منزلك، قالا وأما القوم الذين كانوا شطر منهم حسن وشطر منهم قبيح فانهم خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا تجاوز الله عنهم» اه

فهذا تمثيل في الرؤيا لتحسين العمل الصالح وتجميله للنفس وتشويه العمل القبيح لها، ولتطهيرها بالتوبة والعمل الصالح حتى تكون كلها حسنة جميلة وأهلا لدار الكرامة، بعد ان تبعث في الصورة التي كانت عليها قبل التوبة. وقد قال تعالى (١١ : ١١٤ ان الحسنات يذهبن السيئات) وشبه النبي ﷺ الصلوات الخمس بنهر يفيض على عتبة الانسان خمس مرات كل يوم «فهل يبقى عليها وسخا أو قذراً؟»

(١٠٣) خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (١٠٤) أَلَمْ يَعْلَمُوٓا أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ؟ (١٠٥) وَقُلِ ٱعْمَلُوا۟ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ، وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ

هذه الآيات الثلاث في بيان فوائد صدقة الاموال ومنافعها، والحث عليها، وعلى التوبة لمن قصر في الجهاد في سبيل الله بما له ونفسه ، أو في غير ذلك من أمور دينه . وفي الحث على العمل ، وكونه هو الذي عليه المعول .

أخرج ابن جرير من طريق علي بن أبي طلحة ان أبا لبابة وأصحابه جاؤا رسول الله ﷺ حين أطلقوا فقالوا : يا رسول الله هذه أموالنا فتصدق بها عنا واستغفر لنا ،فقال « ما امرت أن آخذ من أموالكم شيئا » فأنزل الله (خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها) وأخرج مثله عنه من طريق محمد بن سعد عن آبائه وزاد : فلما نزلت هذه الآية اخذ رسول الله ﷺ جزءاً من أموالهم فتصدق بها عنهم . وله في سبب النزول روايات اخرى . وهذا النص حكمه عام وإن كان سببه خاصاً ، عام في الآخذ يشمل خلفاء الرسول من بعده ومن بعدهم من أئمة المسلمين ، وفي المأخوذ منهم وهم المسلمون الموسرون ، قال العماد ابن كثير : وهذا عام وإن عاد الضمير في (أموالهم) إلى الذين اعترفوا بذنوبهم وخلطوا عملا صالحا وآخر سيئا . ولهذا اعتقد بعض مانعي الزكاة من أحياء العرب أن دفع الزكاة إلى الامام لايكون وإنما كان هذا خاصا بالرسول ﷺ واحتجوا بقوله تعالى (خذ من أموالهم صدقة) الآية . وقد رد عليهم هذا التأويل والفهم

الفاسد ابو بكر الصديق وسائر الصحابة (رض) وقاتلوهم حتى أدوا الزكاة إلى الخليفة كما كانوا يؤدونها إلى رسول الله ﷺ حتى قال الصديق: والله لو منعوني عناقا — وفي رواية عقالا — كانوا يؤدونه إلى رسول الله ﷺ لأقاتلنهم على منعه اهـ. وهذا مشهور في الصحاح والسنن والسير ومجمع عليه، وهاك معنى الآية:

﴿ خذ من اموالهم صدقة ﴾ أي خذ أيها الرسول من أموال من ذكر، ومن سائر اموال المؤمنين — على اختلاف انواعها، ومنها مال التجارة — صدقة معينة كالزكاة المفروضة أو غير معينة وهي التطوع — فالصدقة ماينفقه المؤمن قربة لله كما تقدم في نفقة مؤمني الاعراب ﴿ تطهرهم وتزكيهم بها ﴾ أي تطهرهم بها من دنس البخل والطمع والدناءة والقسوة على الفقراء البائسين وما يتصل بذلك من الرذائل، وتزكي أنفسهم بها اي تنميها وترفعها بالخيرات والبركات الخلقية والعملية، حتى تكون بها اهلا للسعادة الدنيوية والاخروية. فالمطهر هنا الرسول والمطهر به الصدقة. والتزكية صيغة مبالغة من الزكاء وهو نماء الزرع ونحوه، قال في مجاز الاساس: رجل زكي زائد الخير والفضل بيّن الزكاء والزكاة (وحنانا من لدنا وزكاة) اهـ

والتزكية للأنفس بالفعل تسند الى الله تعالى، لانه هو الخالق المقدر الموفق للعبد لفعل ما تزكو به نفسه وتصلح قال تعالى (٢٤ : ٢٠ ولولا فضل الله عليكم ورحمته ما زكا منكم من احد ابداً ولكن الله يزكي من يشاء) وتسند الى الرسول ﷺ لانه هو المربي للمؤمنين على ما تزكو به أنفسهم ويعلو قدرها بسنته العملية والقولية في بيان كتاب الله وما لهم فيه من الاسوة الحسنة ومنه هذه الآية وقال تعالى (٦٢ : ٢ هو الذي بعث في الاميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة) فتزكيته ﷺ للامة من مقاصد البعثة [1] وتسند الى العبد لكونه هو الفاعل لما جعله الله سببا لطهارة نفسه وزكائها كالصدقات وغيرها من أعمال البر ومنه قوله تعالى (٩١ : ٩ قد افلح من زكاها (١٠) وقد خاب من دساها) وقوله (٨٧ : ١٤ قد افلح من تزكى (١٥) وذكر اسم ربه فصلى) وأما قوله تعالى

(١) راجع تفسير آية البقرة الثانية في هذا المعنى ص ٢٩ ج ٢ تفسير

(٤ :٤٨ ألم تر الى الذين يزكون انفسهم بل الله يزكي من يشاء) وقوله (٥٣ : ٣٢ فلا تزكوا انفسكم هو أعلم بمن اتقى) فهو في زكاء النفس بدعوى اللسان، فالتزكية تطلق على الفعل المزكي وهو الاصل وعلى القول الدال عليه ومنه تزكية الشهود

﴿ وصلّ عليهم ان صلاتك سكن لهم ﴾ قرأ حمزة والكسائي وحفص (صلاتك) بالمفرد أي جنسها والباقون (صلواتك) بالجمع وهو باعتبار جماعة المتصدقين . والصلاة اسم من صلى يصلي تصلية وقد هجر لفظ التصلية في الاسلام ومنه:

تركت الدنان وغزف القيان وأدمنت تصلية وابتهالا

ومعناها الاصلي الدعاء وهو المراد من الآية ، وسميت العبادة الاسلامية المخصوصة صلاة من تسمية الشيء بأهم أجزائه، فان الدعاء مخ العبادة وروحها . وقيل في التعليل غير ذلك . والصلاة من الله على عباده الرحمة والحنان ، ومن ملائكته الدعاء والاستغفار قال تعالى (٣٣ :٤٣ هو الذي يصلي عليكم وملائكته ليخرجكم من الظلمات الى النور وكان بالمؤمنين رحيما) ثم قال (٥٥ ان الله وملائكته يصلون على النبي يأيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما) وصلاتنا على نبينا ﷺ دعاؤنا له بما أمرنا به في الصلاة بعد التشهد الاخير وما في معناه كقولنا في دعاء الاذان المأثور « اللهم رب هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة آت محمداً الوسيلة والفضيلة وابعثه مقاما محمودا الذي وعدته » رواه الجماعة الا مسلما . والسكن ماتسكن اليه النفس وترتاح من اهل ومال ومتاع ودعاء وثناء

والمعنى ادع ايها الرسول للمتصدقين واستغفر لهم عاطفا عليهم إن دعاءك واستغفارك سكن لهم يذهب به اضطراب أنفسهم إذا أذنبوا ، وتطمئن قلوبهم بأن تقبل توبتهم إذا تابوا ، ويرتاحوا إلى قبول الله صدقاتهم بأخذك لها، ووضعك إياها في مواضعها ﴿ والله سميع عليم ﴾ اي سميع لدعائك سماع قبول وإجابة ، عليم بما فيه من الخير والمصلحة ، فالمراد من السماع والعلم لازمهما . وسميع لاعترافهم بذنوبهم ، عليم بندمهم وتوبتهم منها ، وباخلاصهم في صدقتهم وطيب أنفسهم بها، فهو الذي يثيبهم عليها ، فجملة (ان صلاتك) تعليل للامر بالدعاء ، وتذييلها

بالتذكير بسمع الله وعلمه إشعار بقبول الدعاء وقبول الطاعات والجزاء عليها، وتصرح به الآية التالية

روى الشيخان من حديث عبد الله بن أبي أوفى قال كان النبي ﷺ اذا أتاه قوم بصدقتهم قال «اللهم صل على فلان» فأتاه أبي بصدقته فقال «اللهم صل على آل أبي أوفى» فقوله: بصدقته، صريح في ان المراد بها زكاة الفريضة. وهو يدل على ان المراد بالآية صدقة الفريضة او مايعم الفريضة وغيرها، وعلى أنه ﷺ كان مواظبا على هذا الدعاء، ولذلك قيل ان الامر في الآية للوجوب وهو خاص به ﷺ وقال بعض الظاهرية بوجوب الدعاء على آخذي الزكاة من الأئمة أيضا، والجمهور على انه مستحب لهم. وقد بوب البخاري للحديث بقوله: (باب صلاة الامام ودعائه لصاحب الصدقة، وقوله تعالى (خذ من أموالهم صدقة — إلى قوله — سكن لهم) والجمهور على أن الدعاء بلفظ الصلاة خاص بدعائه (ص) لغيره وبدعاء المسلمين له، وقيد الاول بعض العلماء بما عدا هذا اللفظ الذي كان يدعو به للمتصدقين «اللهم صل على فلان» عند اعطاء الصدقة. وقد ثبت انه ﷺ كان يدعو بغيره أيضاً فقد روى النسائي من حديث وائل بن حجر انه ﷺ قال في رجل بعث بناقة حسنة في الزكاة «اللهم بارك فيه وفي ابله» وقال الشافعي: السنة للامام اذا أخذ الصدقة أن يدعو للمتصدق ويقول آجرك الله فيما أعطيت، وبارك لك فيما أبقيت.

والأفضل الجمع بين الصلاة والسلام عليه (ص) وعلى آله، وأكثر المسلمين يخص بالسلام الانبياء والملائكة، وكذا جماعة آل بيته ﷺ والشيعة يلتزمون السلام على السيدة فاطمة وبعلها وولديهما والأئمة المشهورين من ذرية السبطين ويوافقهم كثير من اهل السنة وغيرهم في الزهراء والسبطين ووالديهما سلام الله ورضوانه عليهم إذا ذكروا جماعة أو أفرادا، وأما الصلاة والسلام على الآل بالتبع للرسول ﷺ فهو مجمع عليه، ومنه صلاة التشهد، وكذا عطف الصحابة والتابعين على الآل ذائع في الكتب والخطب والاقوال

﴿ فصل في فوائد الزكاة المفروضة والصدقات والاصلاح المالي البشر ﴾

وامتياز الاسلام بذلك على جميع الاديان

ماذكره الله تعالى من تطهير الصدقة للمؤمنين وتزكيتهم بها يشمل أفرادهم وجماعتهم، فهي تطهر أنفس الافراد من أرجاس البخل والدناءة والقسوة والاثرة والطمع والجشع، ومن أكل أموال الناس بالباطل من خيانة وسرقة وغصب وربا وغير ذلك، فان الذي يتربى بالايمان على بذل بعض مافي يده أو ما أودعه في خزانته وصندوقه في سبيل الله ابتغاء مرضاته ومغفرة ذنوبه ورفع درجاته، جدير بأن ينزه نفسه عن أخذ مال غيره بغير حق. وهذا التطهير لأنفس الافراد وتزكيتها بالعلم والعرفان، والتقوى التي هي مجموع ثمرات الايمان، يستلزم تطهير جماعة المؤمنين (ومايعبر عنه في عرف هذا العصر بالهيئة الاجتماعية) من أرجاس الرذائل الاجتماعية التي هي مثار التحاسد والتعادي والبغي والعدوان والفتن والحروب

ذلك بأن الاموال قوام حياة الناس [1] وقطب الرحى لمعايشهم ومرافقهم العامة والخاصة، وهم متفاوتون في الاستعداد للكسب والتثمير، والاسراف والتقتير، والقصد والتدبير، والجود والبخل، والتعاون على البر، فلا ينفك بعضهم محتاجا إلى بعض في كسب الرزق وفي إنفاقه، وأشدهم استعداداً لجمع الثروة الذين يغلب على طباعهم الحرص والبخل حتى على أنفسهم وأولي قرباهم، وبهذا يكون بعضهم فتنة — اي امتحانا — لبعض ومثاراً للتنازع والتخاصم كما قال تعالى (وجعلنا بعضكم لبعض فتنة أتصبرون؟) أي ذلك مقتضى سنته في تفاوت البشر في الاستعداد والاخلاق والاعمال. وقد بينا حكمة ذلك من قبل

ولما كان الدين مرشداً للبشر إلى تزكية أنفسهم وتقويم أخلاقهم بما تصلح به فطرتهم، ويرتقي به أفرادهم وجماعتهم — شرع الله فيه من الاحكام التعبدية والعملية مايقيهم شر هذه الفتنة، وينقذهم مما يترتب على إهمالها من المحنة، فأوجب

---

[1] «قوام الشيء بالفتح والكسر عماده الذي يقوم به وينتظم، ونقاب واو المكسور ياء جوازا ومنه «ولاتؤتوا السفهاء أموالكم التي جعل الله لكم قياما»

على أصحاب الاموال من النفقات والصدقات ، مايبدل سيئات الثروة في الاسلام حسنات ،واننا لم نجد في كتب التفسير ولا كتب الفقه ولا دواوين التاريخ الاسلامي بيانا علميا لحكمة الشريعة في السياسة المالية وما انفردت به من الاصلاح المعقول فيها ، وكنت عازما على شرح ذلك في تفسير هذه الآية فلما وصلت اليه وفكرت في أصول هذه المسألة وفروعها تبين لي أنه لا يمكن تفصيل القول فيها الا بتأليف سفر مستقل،ورأيت أن أكتفي هنا بايراد أهم الحقائق التي تشير إلى عظم شأن هذه المسألة واصلاح الاسلام فيها فأقول:

ان اتساع دوائر العلوم والفنون والمصالح العامة في هذا العصر قد اضطر الباحثين إلى انفراد بعض الافراد والجماعات للاخصاء في كل فرع من فروعها لتمحيص مسائلها والاحاطة بها بقدر الامكان ، حتى ان الرجال الماليين لا يستحقون هذا اللقب فيه (أي لقب المالي) إلا بعد إتقان عدة علوم منها ، والتمرن بالعمل في بعض فروعها ، واننا نرى بعض الاجتماعيين منهم يجزمون بان جميع الثورات والحروب السياسية والدينية ذات الشأن في تاريخ البشر قد كان المال سببها الصحيح، او أحد الاسباب المؤثرة فيها أشد التأثير ، ولم يستثنوا من ذلك حروب اوربة الدينية ولا حروبها الصليبية للاسلام

بل نشر منذ سنتين كتاب عربي طبع في القدس موضوعه (الحركات الفكرية في الاسلام) زعم مؤلفه (١) تابعا لبعض مؤرخي الافرنج: ان الاسلام لم يكن فكرة دينية محضا بل كان مسألة اقتصادية واجتماعية أيضا ، او كان هذا هو الغرض الاول المقصود بالذات منه ولم يكن الدين الا وسيلة له ونقل عن (كايتاني) المؤرخ الايطالي المشهور ان الاسلام لم يكن دينيا إلا في الظاهر ،وان جوهره كان سياسيا واقتصاديا (قال) « ومن فضل مؤسس الدين الاسلامي ومظاهر عبقريته انه أدرك مصدر الحركة الاقتصادية والاجتماعية التي ظهرت في أيامه بمكة عاصمة الحجاز ، وعرف كيف يستفيد منها ويسخرها لأغراضه السامية دينية كانت او اجتماعية » ثم بسط ذلك من طريق ظواهر التاريخ بما هو باطل في نفسه ، خادع

(١) هو بندلي جوزي السوري الروسي التابعية أحد أساتذة جامعة باكو الروسية

ببعض مظاهره ، وما أظن ان الناقل عنه ـ وهو نصراني الديانة ، شيوعي السياسة ـ يعتقد اعتقاده هذا ، وانما يريد فيما يظهر نشر الشيوعية التي ابتدعها بلاشفة دولته الروسية في العرب ، وزلزلة العقائد الاسلامية في المسلمين ، وربما نجد فرصة للرد على كتابه في المنار ، وحسبي هنا أن أقول لو كان الاسلام كما ذكر لظهر أثره في أعلم الناس بحقيقته ، وأصدقهم في إقامة أركانه بالعلم والعمل ، وفي طليعتهم الخلفاء الراشدون ، والأئمة المجتهدون ، وقد قال عمر بن عبدالعزيز الجامع بين الامامتين في كتاب له الى بعض عماله المالين « إن محمداً (ص) بعث هاديا ، ولم يبعث جابيا »

والحق ان الاسلام هو الدين الوسط ، الجامع بين مصالح الروح والجسد ، للسيادة في الدنيا والسعادة في الآخرة ، فهو وسط بين اليهودية المالية الدنيوية ، والنصرانية الروحانية الزهدية (١) وان من مقاصده الاصلاحية في الاجتماع البشري هداية الناس إلى العدل والفضل في أمر المال ، ليكتفي الناس شر طغيان الاغنياء ، وذلة الفقراء ، ونصوص القرآن والسنة في هذا هي الغاية القصوى في الاصلاح ، وهي هادمة لمزاعم هؤلاء المفتاتين على الاسلام بالجهل والهوى ،

غلا عباد المال من اليهود والافرنج في جمعه واستغلاله ، واستعباد الالوف والوف الالوف من العمال الفقراء به ، بجعله دُولة بينهم ، وغلا خصومهم من الاشتراكيين في مقاومتهم ومحاولة جعل الناس فيه شرعا ، وجعله بينهم حقا شائعا ، فانتهى هذا الغلو بالشيوعية الروسية في عصرنا أن استعبدت أكثر من مائة الف من البشر تسخرهم في تنفيذ مذهبها كالانعام والدواب ، وتبذل جل ما تنتزعه من ثروتهم في بث الدعاية له في جميع الاقطار . ويخشى العقلاء من عاقبة هذا الاسراف والغلو من الجانبين حربا عامة طامة ، وفتنة لا تصيبن الذين ظلموا منهم خاصة

ولا منقذ للامم من هذه الفتنة وعواقبها إلا بدين الاسلام ـ أعني بالتدين به والعمل بأحكامه المالية وغيرها ، ولا يمكن التزامها بالعمل إلا باذعان الدين ، وقد بدأ عقلاء الافرنج يشعرون بالحاجة إلى دين معقول يصلح بالتزامه فساد هذه المدنية المادية ، ولن يجدوا حاجتهم إلا في دين القرآن ، وسنة خاتم النبيين

(١) راجع تفسير (٢ : ١٤٣ وكذلك جعلناكم أمة وسطا) ص٣ ج ٢ تفسير

عليه الصلاة والسلام ، وأخشى ألا يهتدوا اليه الا بعد البطشة الكبرى، والطامة العظمى ، وهي حرب التدمير المنتظرة من تنازع البلشفية والرأسمالية ، وانني أذكر هنا أهم أصول الاصلاح الاسلامي في المسألة المالية التي تبتدر فكري وتبدهه فأقول :

(الاول) اقرار الملكية الشخصية وتحريم أكل أموال الناس بالباطل

(٢) تحريم الربا والقمار

(٣) منع جعل المال دولة بين الاغنياء - أي يتداولونه بينهم من دون الفقراء، ولم يكن هذا التداول في عصر من أعصار البشر كما في عصر النظام المالي المتبع في الحضارة الغربية نظام البيوت المالية (المصارف) والشركات والاحتكارات التي يحاربها العمال ، ويعادون لاجلها أرباب الاموال

(٤) الحجر على السفهاء في أموالهم حتى لايضيعوها فيما يضرهم ويضر أمتهم

(٥) فرض الزكاة المطلقة في أول الاسلام ، وكانت اشتراكية باعثها إذعان الوجدان لا اكراه الحكام ، ثم نسخت اوقيدت بالمعينة الاجبارية عند ما صار للاسلام دولة ، ولو وجدت تلك الحال التي كان عليها المسلمون في مكة قبل الهجرة لوجبت عليهم فيها تلك الزكاة الاشتراكية ، أعني انه إذا وجد في مكان جماعة محصورون منهم الموسر والمعسر ، وصاحب الثروة وذو الفقر المدقع ، وجب أن يقوم اغنياؤهم بكفاية فقرائهم وجوبا دينياً إذا كانت الزكاة المعينة لا تكفيهم

(٦) جعل الزكاة المعينة ربع العشر في النقدين والتجارة ، والعشر او نصف العشر في الغلات الزراعية التي عليها مدار الاقوات . وزكاة الانعام معروفة في كتب الحديث والفقه

(٧) فرض نفقة الزوجية والقرابة

(٨) إيجاب كفاية المضطر من كل جنس ودين، وضيافة الغريب حيث لامأوى ولا فنادق للمسافرين ، إلا إذا كان مهدور الدم أو محاربا للمسلمين

(٩) جعل بذل المال كفارة لبعض الذنوب (ومنها الظهار وإفساد صيام يوم من رمضان بشروطها المعروفة)

(١٠) ندب صدقات التطوع والترغيب فيها

(١١) ذم الاسراف والتبذير، والبخل والشح والتقتير، وعده من أسباب الهلكة وسوء المصير، أي الافراد والامة والدولة

(١٢) إباحة الزينة والطيبات من الرزق بشرط اجتناب الاسراف والخيلاء الموقعين في الامراض والادواء البدنية، المضيعين للثروة المالية، المثيرين للحسد والعداوة والمفاسد الاجتماعية، وهي من أعظم اسباب ترقي الثروة

(١٣) مدح القصد والاعتدال، في النفقة على النفس والعيال.

(١٤) تفضيل الغني الشاكر، على الفقير الصابر، بجعل اليد العليا، خيراً من اليد السفلى، وأعمال البر المتعدي نفعها إلى الناس، أفضل من الاعمال القاصر نفعها على فاعلها، وجعل الصدقة الجارية، من المثوبات الدائمة الباقية

أرأيت أمة من الامم تقيم هذه الاركان ويوجد فيها فقر مدقع، أو غرم موجع، أو شقاء مفظع؟

ألم تر أن زكاة النقدين الواجبة - وهي ربع العشر - هي أوسط ربح تدفعه المصارف المالية لمودعي نقودهم فيها للاستغلال، وقد يقل عن ذلك؟

قدر الثروة القومية في النقد والتجارة للشعب المصري وانظر مقدار ربع عشرها الواجب دفعه في كل عام لفقرائها ومصالحها، وارجع البصر الى سائر أنواع الزكاة ومقاديرها، تعرف قدر سعادته اذا وضعها في مواضعها، وتعلم صدق ماقلناه في تفسير آية مصارف الصدقات، من ان أداء الزكاة وحده كاف لاعادة مجد الاسلام الذي أضاعه المسلمون

اقرأ (وأنفقوا في سبيل الله ولا تلقوا بايديكم إلى التهلكة) واقرأ (ومن يوق شح نفسه فاولئك هم المفلحون) وتدبر جد التدبر (هاأنتم هؤلاء تدعون لتنفقوا في سبيل الله فمنكم من يبخل، ومن يبخل فانما يبخل عن نفسه، والله الغني وأنتم الفقراء. وإن تتولوا يستبدل قوما غيركم، ثم لايكونوا أمثالكم)

وقد جاء في الكتاب والسنة من الترغيب في بذل المال في سبل البر، وجعله من أكبر آيات الايمان، وموجبات الثواب والرضوان، وتبوي غرف الجنان، وتسميته اقراضا للرحمن، مالم يجيء مثله في أي عمل من أعمال البر والاحسان.

وتجد أكثر الشواهد على ذلك في سورة البقرة (*) ثم في هذه السورة (براءة) ما تقدم تفسيره منها وما تاخر.

﴿ألم يعلموا أن الله هو يقبل التوبة عن عباده﴾ أي ألم يعلم أولئك التائبون من ذنبهم ان الله هو الذي يقبل توبة التائبين من عباده، ولم يجعل ذلك لرسوله، بله من دونه من خلقه، فلاستفهام لتقرير ما دل عليه القرآن وكونه هو الذي حملهم على التوبة، ـ أو ألم يعلم المؤمنون كافة هذا وهو مقتضى الايمان وموجبه؟ والاستفهام على هذا تحضيض على هذا العلم وما يستلزمه من التوبة. وقبول التوبة عنهم، قيل انه بمعنى قبولها منهم، نحو: لاصدقة إلا عن غنى ومن غنى، وقيل ان القبول هنا قد تضمن معنى التجاوز والصفح، أي هو الذي يقبلها منهم متجاوزاً عن ذنوبهم عفواً عنها وهذا أبلغ ﴿ويأخذ الصدقات﴾ أي يتقبلها بأنواعها ويثيب عليها، ويعدها اقراضا له فيضاعف ثوابها، بمقتضى وعده في مثل قوله (ان تقرضوا الله قرضا حسنا يضاعفه لكم ويغفر لكم) وقوله (من ذا الذي يقرض الله قرضا حسنا فيضاعفه له أضعافا كثيرة) فأخذ الصدقات له ثلاث صور (احداها) أخذ الفقراء والمساكين وغيرهم إياها من المستحقين من يد المتصدق (الثانية) أخذ النبي ﷺ في عهده والأئمة من بعده إياها لاجل وضعها في مصارفها التي أمر الله بها (الثالثة) أخذ الله عز وجل اياها وهو قبولها للاثابة عليها بالمضاعفة التي وعدها. وفي التعبير باخذ الله تعالى بعد قوله للنبي (خذ من أموالهم صدقة) تشريف للنبي ﷺ بكونه تعالى هو الذي يأخذ ما أمره بأخذه ﴿وان الله هو التواب الرحيم﴾ أي وانه هو الذي يقبل التوبة بعد التوبة من كل مذنب يشعر بضرر ذنبه، ويتوب عنه منيبا الى ربه، مهما يتكرر ذلك ـ الرحيم بالتائبين الذي يثيبهم. فصيغة المبالغة (التواب) تتحقق بكثرة التائبين وبتكرار التوبة من المذنب الواحد الذي يمنعه

(*) راجع صفحة ٢٩٣ من الجزء الاول وص ١٢٦ — ١٥٩ وص ٤٥٦ ج ٢ وص ١٥ و ٥٩ و ٦٧ و ٧٨ — ٩٢ و ٣٧١ ج ٣ و ١٣٢ ج ٤ — و ٩٧ — ٤٠١ و ٣٢٧ و ٤٠٥ ج ٥ وراجع ألفاظ الزكاة والصدقات والمال في فهرس الجزء العاشر وغيره

الخوف من ربه ، أن يصر على ذنبه ، كما قال تعالى في وصف المتقين (٣ : ١٣٥ والذين اذا فعلوا فاحشة أوظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ، ومن يغفر الذنوب إلا الله ؟ ولم يصروا على مافعلوا وهم يعلمون) وفي الحديث « ما أصر من استغفر وان عاد في اليوم سبعين مرة » (١) روى الشيخان من حديث أبي هريرة مرفوعا « ماتصدق أحدكم بصدقة من كسب حلال طيب ـ ولا يقبل الله الا الطيب ـ الا أخذها الرحمن بيمينه وان كانت تمرة ، فتربو في كف الرحمن حتى تكون أعظم من الجبل كما يربي أحدكم فلوه أو فصيله » (٢) والحديث تمثيل لمضاعفته تعالى للصدقة المقبولة

وهذه الجملة الاسمية المؤكدة بان وبضمير الفصل الدالة على الحصر ، وما فيها من صيغة المبالغة بمعنى الكثرة من التوبة ، ومبالغة الصفة الراسخة من الرحمة ، تفيد أعظم البشرى للتائبين ، وأبلغ الترغيب في التوبة للمذنبين ، كما لايخفى على المتدبرين .

﴿ وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون ﴾ هذا عطف على قوله تعالى (خذ من أموالهم صدقة) الخ أي وقل لهم أيها الرسول اعملوا لدنياكم وآخرتكم ولأنفسكم وامتكم (حذف متعلق العمل يدل على العموم ، وقدره بعضهم اعملوا ماشئتم) فانما العبرة بالعمل لا بالاعتذار عن التقصير ، ولا بدعوى الجد والتشمير ، وخير الدنيا والآخرة منوطان بالعمل ، وهو لا يخفى على الله ولا على الناس أيضا ، فسيرى الله عملكم خيراً كان أو شراً ، فيجب عليكم أن تراقبوه تعالى في أعمالكم ، وتتذكروا انه ناظر اليكم ، عليم بمقاصدكم ونياتكم ، لاتخفى عليه منكم خافية ، وجدير بمن يؤمن برؤية الله لعمله أن يتقنه ، وأن يخلص له النية فيه ، فيقف فيه عند حدود شرعه ، ويتحرى به تزكية نفسه والخير لخلقه ، ولا يكتفي فيه بترك معاصيه ، واجتناب مناهيه ، راود رجل امرأة عن نفسها في فلاة قائلا انه لايرانا هنا إلا الكواكب ، قالت فأين مكوكبها ؟ فخجل وانصرف . وسيراه رسوله

« ١ » رواه أبو داود والترمذي عن أبي بكرة مرفوعا « ٢ » الفلو بتشديد الواو (كعدو) المهر ، أي ولد الفرس يفصل عن امه ، والفصيل ولد الناقة حين ينفصل عن أمه

والمؤمنون ، ويزنونه بميزان الايمان، المميز بين الاخلاص والنفاق، وهم شهداء الله على الناس ، قال رسول الله ﷺ فيما رواه احمد وابو يعلى وابن حبان والبيهقي « لو ان أحدكم يعمل في صخرة صماء ليس لها باب ولا كوة لأخرج الله عمله للناس كائنا ما كان » وقال زهير :

ومهما تكن عند امريء من خليقة   وان خالها تخفى على الناس تعلم

فاذا كانت الخلائق النفسية، والاعمال السرية ، لاتخفى على الناس مهما يكن من محاولة صاحبها لاخفائها، فماذا يقال في الاعمال التي هي مقتضى العقائد والاخلاق، وما انطبعت عليه النفس من الملكات ، ومرنت عليه من العادات؟ نرى المؤمنين الصادقين يخفون بعض أعمال البر التي يستحب اخفاؤها كالصدقة على الفقير المتعفف سترا عليه، ومبالغة في الاخلاص لله تعالى الذي ينافيه الرياء وحب السمعة، ولكنهم لايلبثون أن يشتهروا بها، ونرى بعض المنافقين يخفون بعض أعمال النفاق خوفا من الناس لا من الله ، ولكنهم لايلبثون أن يفتضحوا بها . ومن أمثال العوام : ان الذي يختفي هو الذي لايقع

والآية تهدينا الى أن مرضاة جماعة المؤمنين القائمين بحقوق الايمان ، المقررة صفاتهم في القرآن ، تلي مرضاة الله ورسوله ، وانهم لا يجتمعون على ضلالة . وفي معناه حديث أنس في الصحيحين قال : مروا بجنازة فأثنوا عليها خيراً فقال النبي ﷺ « وجبت » ثم مروا بأخرى فأثنوا عليها شرا فقال « وجبت » فقال عمر ابن الخطاب (رض) ما وجبت ؟ قال « هذا أثنيتم عليه خيرا فوجبت له الجنة، وهذا أثنيتم عليه شرا فوجبت له النار، انتم شهداء الله في الارض » وفي لفظ مسلم تكرار « وجبت » ثلاث مرات في الموضعين ، وكذا تكرار « أنتم شهداء الله في الارض » وفي معناه حديث ابن عمر مرفوعا « إن الله لايجمع أمتي — أو قال أمة محمد — على ضلالة ، ويد الله على الجماعة ومن شذ شذ الى النار » أخرجه الترمذي من طريق سليمان المديني وقال هذا حديث غريب من هذا الوجه وسليمان المديني عندي هو سليمان بن سفيان اهـ أقول وهو ضعيف منكر الحديث باتفاقهم ويعزى الحديث الى الطبراني بلفظ « لاتجتمع أمتي على ضلالة » والعلماء يستدلون به على حجية

obeikandi.com

الاجماع لصحة معناه بموافقته للآيات والصحاح من الاخبار ، وإنما يدل على اجماع الامة، أمة الاجابة وأهل الاستقامة، لا على الاجماع المصطلح عليه عند الاصوليين . وفي معناه قول ابن عباس «ما رآه المسلمون حسناً فهو عند الله حسن » رواه عنه احمد في السنة لا في المسند، ومن الناس من يظن انه حديث مرفوع ، ويستدل به الجهال حتى من المعممين ادعياء العلم على استحسان البدع الفاشية حتى في العقائد الثابتة، كبدع القبور التي كان يلعن النبي ﷺ فاعليها في مرض موته ، من بناء المساجد عليها ، والصلاة اليها ، وايقاد السرج والمصابيح عندها ، بل ما هو شر من ذلك وهو عبادتها بالطواف حولها ، ودعاء اصحابها ، والنذر لهم ، والاستغاثة بهم ، حتى في الشدائد وهو ما لم يكن يفعله عباد الاصنام في مثل هذه الحال ، بل كانوا فيه يخلصون الدعاء لله ، فلا حول ولا قوة إلا بالله

بعد هذا الارشاد الى ما يقتضي الاحسان في الاعمال من مراقبة الله وتحري مرضاته ومرضاة رسوله وجماعة المؤمنين والخير لعباده بها ، ذكرهم تعالى بما يقتضي ذلك من جزاء الآخرة عليها ، فقال ﴿ وستردون إلى عالم الغيب والشهادة ﴾ بالبعث بعد الموت ﴿ فينبئكم بما كنتم تعملون ﴾ في الدنيا مما كان مشهوداً للناس منه ، وما كان غائبا عن علمهم منه ومن نياتكم فيه ، ينبئكم به عند الحساب ، وما يترتب عليه من الجزاء بحسن الثواب ، أو سوء العذاب

(١٠٦) وَآخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ اللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ٦

هذه الآية عطف على قوله تعالى (وآخرون اعترفوا بذنوبهم خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا) وهؤلاء هم القسم الاخير من المتخلفين عن غزوة تبوك . فقد علم مما تقدم ان المتخلفين منهم المنافقون وهم أكثرهم ، وقد تقدم بيان أقسامهم ومن اعتذر ومن لم يعتذر منهم ، ومنهم المؤمنون وهم قسمان (أحدهما) الذين اعترفوا بذنوبهم وتابوا وزكوا توبتهم بالصدقة وطلب دعاء الرسول

واستغفاره فتاب الله عليهم ، و (ثانيهما) الذين حاروا في أمرهم ولم يعتذروا للرسول (ص) لانهم لاعذر لهم ، وارجأوا توبتهم فأرجأ الله الحكم القطعي في أمرهم للحكمة التي يأتي بيانها قريبا . قال ابن عباس ومجاهد وعكرمة والضحاك وغيرهم : هم الثلاثة الذين خلفوا أي عن التوبة ، وهم مرارة بن الربيع وكعب بن مالك وهلال بن أمية ، قعدوا عن غزوة تبوك في جملة من قعد كسلا وميلا إلى الدعة والحظ وطيب الثمار والظلال لاشكا ونفاقا ، فكانت طائفة ربطوا أنفسهم بالسواري كما فعل ابو لبابة وأصحابه ، وطائفة لم يفعلوا ذلك وهم هؤلاء الثلاثة المذكورون ، فنزلت توبة اولئك قبل توبة هؤلاء ، وارجيء هؤلاء عن التوبة حتى نزلت آيتا التوبة الآتيتين (١١٧ و ١١٨)

﴿ وآخرون مرجون لأمر الله ﴾ أي وثم أناس آخرون من المتخلفين مؤخرون لحكم الله في أمرهم ، اولأمره لرسوله بما يعاملهم به . قرأ نافع وحمزة والكسائي وحفص عن عاصم (مرجون) بحذف الهمزة للتخفيف ، والآخرون (مرجؤن) بالهمزة على الاصل ، فهو اسم مفعول من أرجأه إذا أخره ، وقيل هما لغتان . رجاه يرجوه وأرجأه يرجئه . وروي ان هذا الإرجاء كان ٥٠ يوما

﴿ إما يعذبهم وإما يتوب عليهم ﴾ أي ابهم الامر عليهم وعلى الناس ، لا يدرون مايفعل فيهم ، هل تنصح توبتهم فيتوب الله عليهم كما تاب على الذين اعترفوا بذنوبهم ، أم يحكم بعذابهم في الدنيا والآخرة كما حكم على المخالفين من المنافقين ؟ فالترديد بين الامرين هو بالنسبة الى الناس لا إلى الله عز وجل ، وحكمة إبهام امر هؤلاء عليهم إثارة الهم والخوف في قلوبهم لتصح توبتهم ، وحكمة إبهامه على الرسول ﷺ والمؤمنين تركهم مكلفتهم ومخاطبتهم ، تربية للفريقين على مايجب في أمثالهم من الذين يؤثرون الراحة ونعمة العيش ، على طاعة الله ورسوله والجهاد في سبيله لاعلاء كلمة الحق والعدل ، ودفع عدوان الكفار عن المؤمنين ، حتى ما كان من امرهم مابينه في الآية (١١٨) ﴿ والله عليم حكيم ﴾ عليم بحال عباده و تربيتهم وتزكيتهم ويصلح حال أفرادهم ومجموعهم ، حكيم فيما يشرعه لهم من

الاحكام المفيدة لهذا الصلاح ما عملوا بها . ومن آثار علمه وحكمته إرجاء النص على توبتهم في كتابه ، ومن هذه الحكمة تكرار تأثير تلاوة المؤمنين الآيات في ذلك في الاوقات المتفرقة ، فانها من اعظم آيات القرآن ترهيبا وتخويفا ، وعظة وتهذيباً

---

(١٠٧) وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِداً ضِرَاراً وَكُفْراً وَتَفْرِيقاً بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَاداً لِّمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ ، وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَى ، وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (١٠٨) لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَداً ، لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ ، فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ (١٠٩) أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ ؟ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (١١٠) لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ

نزلت هذه الآيات الاربع في واقعة حال من مكايد المنافقين للرسول ﷺ والمؤمنين ، لم أر أحداً بين حكمة خاصة لتأخيرها عن أمثالها مما نزل في أعمال المنافقين ، ووضعها هنا في سياق توبة المذنبين من المؤمنين : ما تقدم منها فقبل ، وما تأخر فأرجيء ، وقد بينا الحكمة العامة في تفريق الآيات في الموضوع الواحد — وهو تجديد الذكرى والعظة ، وما تقتضيه من التأثير والعبرة — في مواضع متعددة من الكلام على التناسب ووجوه الاتصال بين الآيات . ولعل بعض ضعفاء المؤمنين كانوا قد شايعوا اولئك المنافقين الاثني عشر الذين بنوا مسجد الضرار في عملهم جاهلين مقاصدهم منه ، فأريد بوضع القصة هنا وإبهام عطفها على من ارجأ الله الحكم

في امرهم، ان يتعظوا اولئك الغافلون من المؤمنين المغرورين بمسجد الضرار ومتخذيه ، ويخافوا أن يؤاخذوا بمشايعتهم لهم ، ولو بصلاتهم معهم في مسجدهم .

روي ان مجمع بن حارثة كان امامهم في مسجد الضرار فكلم بنو عمرو بن عوف أصحاب مسجد قباء عمر بن الخطاب في خلافته بان يأذن لمجمع فيؤمهم في مسجدهم، فقال لا ولا نعمة عين، أليس بامام مسجد الضرار؟ فقال يا أمير المؤمنين لا تعجل علي ، فوالله لقد صليت بهم والله يعلم اني لا اعلم ما أضمروا فيه ، ولو علمت ما صليت معهم فيه ، كنت غلاما قارئا للقرآن وكانوا شيوخا لا يقرءون من القرآن شيئا . فعذره وصدقه وأمره بالصلاة بقومه قال تعالى

﴿ والذين اتخذوا مسجداً ضراراً وكفراً وتفريقا بين المؤمنين وإرصاداً لمن حارب الله ورسوله من قبل ﴾ يحتمل أن تكون هذه الجملة ابتدائية معطوفة على ماقبلها من السياق في جملته حذف خبرها للعلم به ، ويبعد ان تكون معطوفة على قوله (وآخرون مرجون) إلا على قول ضعيف روي عن الحسن وهو انه في المنافقين ، والافصح أن يكون لفظ « الذين » منصوبا على الاختصاص بالذم ، وجعله محتملا لما ذكر ولغيره نراه من الابهام ، الذي تقتضيه البلاغة في هذا المقام، لما أشرنا اليه آنفا من الابهام ، وقد قرر علماء البيان ان البلاغة تقتضي أحيانا ايراد عبارة تذهب النفس في فهمها عدة مذاهب محتملة فيها . وقرأ نافع وابن عامر (الذين) بغير واو . وهي أقرب الى قول الحسن منها الى قول الجمهور ، وما أشرنا اليه من حكمة وضع الآيات هنا أظهر في هذه القراءة منه في قراءة جمهور القراء (فتأمل)

ذكر المفسرون أن هؤلاء الذين اتخذوا هذا المسجد كانوا اثني عشر رجلا من منافقي الاوس والخزرج وسموهم باسمائهم، وقد بين الله تعالى ان الاغراض التي بنوه لاجلها أربعة ذكرت منصوبة على المفعول لأجله وهي:

(١) انهم اتخذوه لمضارة المؤمنين أي محاولة إيقاع الضرر بهم ، وهم أهل مسجد قباء (الذي بناه لهم رسول الله ﷺ مقدمه من مكة مهاجراً وقبل وصوله إلى المدينة) إذ بنوه بجواره مضادة لهم في الاجتماع للصلاة فيه

(٢) الكفر أو تقوية الكفر، وتسهيل أعماله من فعل وترك، كتمكين المنافقين من ترك الصلاة هنالك مع خفاء ذلك على المؤمنين لعدم اجتماعهم في مسجد واحد ، والتشاور بينهم في الكيد لرسول الله ﷺ وغير ذلك، قيل لا بد هنا من تقدير مضاف لان بناء المسجد نفسه ليس كفراً ، ولكن التعليلات الاربعة في الآية هي للقصد من البناء المعبر عنه بالاتخاذ ، والكفر يطلق على الاعتقاد وعلى العمل المنافيين للايمان

(٣) التفريق بين المؤمنين الذين هنالك، فانهم كانوا يصلون جميعا في مسجد قباء ، وفي ذلك من مقاصد الاسلام الاجتماعية ما فيه ، وهو التعارف والتآلف والتعاون وجمع الكلمة ، ولذلك كان تكثير المساجد وتفريق الجماعة منافياً لمقاصد الاسلام ، ومن الواجب على المسلمين في كل بلد أن يصلوا الجمعة في مسجد واحد إذا تيسر، فان تفرقوا عمداً وصلوا في عدة مساجد والحالة هذه كانوا خاطئين، وذهب بعض الائمة الى أن الجمعة الصحيحة تكون حينئذ لاهل المسجد الذين سبقوا بالتجميع

وهذا يدل على أن بناء المساجد لا يكون قربة مقبولة عند الله الا إذا كان بقدر حاجة المؤمنين المصلين ، وغير سبب لتفريق جماعتهم ، ومنه يعلم أن كثيراً من مساجد مصر القريب بعضها من بعض — وكذا أمثالها في الامصار الاخرى — لم تبن لوجه الله تعالى ، بل كان الباعث على بنائها الرياء ، واتباع الاهواء ، من جهلة الامراء والاغنياء .

(٤) الارصاد لمن حارب الله ورسوله من قبل اتخاذ هذا المسجد، أي الانتظار والترقب لمن حارب الله ورسوله أن يجيء محاربا، فيجد مكانا مرصدا له ، وقوما راصدين مستعدين للحرب معه ، وهم هؤلاء المنافقون الذين بنوا هذا المسجد مرصداً لذلك . يقال: رصدته أي قعدت له على طريقه أترقبه ، وراصدته راقبته ،

وأرصدت هذا الجيش للقتال، وهذا الفرس للطراد اهـ ملخصاً من الاساس، واتفق المفسرون على ان الذي أغراهم ببناء هذا المسجد لهذا الغرض رجل من الخزرج يعرف بابي عامر الراهب، وعدهم بان سيأتيهم بجيش من الروم لقتال النبي ﷺ واصحابه

﴿ وليحلفن إن أردنا إلا الحسنى ﴾ إخبار مؤكد بالقسم أنهم سيحلفون إنهم ما أرادوا ببنائه إلا الخصلة أو الخطة التي تفوق غيرها في الحسن، وهي الرفق بالمسلمين وتيسير صلاة الجماعة على أولي العجز والضعف ومن يحبسهم المطر منهم،

ليصدقهم الرسول صلى الله عليه وسلم ويصلي لهم فيه ﴿ والله يشهد إنهم لكاذبون ﴾ في قولهم، حانثون بيمينهم. قال العماد ابن كثير :

سبب نزول هذه الآيات الكريمات أنه كان بالمدينة قبل مقدم رسول الله ﷺ اليها رجل من الخزرج يقال له أبو عامر الراهب، وكان قد تنصر في الجاهلية وقرأ علم أهل الكتاب، وكان فيه عبادة في الجاهلية وله شرف في الخزرج كبير. فلما قدم رسول الله ﷺ مهاجراً إلى المدينة واجتمع المسلمون عليه وصارت للاسلام كلمة عالية وأظهرهم الله يوم بدر، شرق اللعين ابو عامر بريقه وبارز بالعداوة وظاهر بها، وخرج فاراً إلى كفار مكة من مشركي قريش، فألبهم لحرب رسول الله ﷺ فاجتمعوا بمن وافقهم من أحياء العرب وتدفوا عام أحد، فكان من أمر المسلمين ما كان، وامتحنهم الله عز وجل، وكانت العاقبة للمتقين، وكان هذا الفاسق قد حفر حفائر فيما بين الصفين فوقع في احداهن رسول الله ﷺ وأصيب ذلك اليوم فجرح وجهه وكسرت رباعيته اليمنى السفلى وشج رأسه صلوات الله وسلامه عليه، وتقدم ابو عامر في أول المبارزة إلى قومه من الانصار فخاطبهم واستمالهم إلى نصره وموافقته، فلما عرفوا كلامه قالوا: لا أنعم الله بك عينا يا فاسق ياعدو الله، ونالوا منه وسبوه، فرجع وهو يقول: والله لقد أصاب قومي بعدي شر، وكان رسول الله ﷺ قد دعاه الى الله قبل فراره وقرأ عليه من القرآن فأبى أن يسلم وتمرد، فدعا عليه رسول الله ﷺ أن يموت بعيداً طريداً، فنالته

هذه الدعوة ، وذلك أنه لما فرغ الناس من أحد ورأى أمر الرسول ﷺ في ارتفاع وظهور ، ذهب الى هرقل ملك الروم يستنصره على النبي ﷺ فوعده ومناه ، وأقام عنده وكتب الى جماعة من قومه من الانصار من أهل النفاق والريب يعدهم ويمنيهم انه سيقدم بجيش يقاتل به رسول الله ﷺ ويغلبه ويرده عما هو فيه ، وأمرهم ان يتخذوا له معقلا يقدم عليهم فيه من يقدم من عنده لاداء كتبه ، ويكون مرصداً له إذا قدم عليهم بعد ذلك . فشرعوا في بناء مسجد مجاور لمسجد قباء ، فبنوه وأحكموه وفرغوا منه قبل خروج رسول الله ﷺ الى تبوك ، وجاءوا فسألوا رسول الله ﷺ ان يأتي اليهم فيصلي في مسجدهم ليحتجوا بصلاته فيه على تقريره وإثباته ، وذكروا انهم انما بنوه للضعفاء منهم وأهل العلة في الليلة الشاتية ، فعصمه الله من الصلاة فيه فقال « إنا على سفر ولكن إذا رجعنا ان شاء الله » فلما قفل عليه السلام راجعا الى المدينة من تبوك ولم يبق بينه وبينها الا يوم او بعض يوم نزل عليه جبريل بخبر مسجد الضرار وما اعتمده بانوه من الكفر والتفريق بين جماعة المؤمنين في مسجدهم (مسجد قباء) الذي اسس من اول يوم على التقوى ، فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى ذلك المسجد من هدمه قبل مقدمه المدينة كما قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في الآية ـ وذكر روايته بمعنى ماذكر مختصرة اه

وذكر البغوي في خبر ابي عامر الفاسق هذا انه مازال يقاتل النبي ﷺ ويحرض عليه المشركين الى يوم حنين فلما انهزمت هوازن يئس وخرج هاربا الى الشام ، وأرسل الى المنافقين ان استعدوا بما استطعتم من قوة وسلاح ، وابنوا لي مسجداً ، ثم ذاهب الى قيصر ملك الروم فآت بجند من الروم الخ ماتقدم آنفا

﴿ لاتقم فيه أبدا ﴾ هذا نهي للرسول ﷺ والمؤمنين بالتبع له عن الصلاة فيه مؤكد بلفظ الابد الذي يستغرق الزمن المستقبل ، وتفسير القيام بالصلاة هنا مروي عن ابن عباس وهو معهود في التنزيل كقوله (وقوموا لله قانتين) وقوله (قم الليل إلا قليلا) والنهي عن القيام المطلق يتضمن النهي عن القيام للصلاة ، ولكنها

هي المقصودة بالنهي لطلبهم لها منه ﷺ ﴿ لمسجد أسس على التقوى من أول يوم أحق أن تقوم فيه ﴾ اللام الداخلة على المسجد للقسم او للابتداء . والتأسيس وضع الاساس الاول للبناء الذي يقوم عليه ويرفع ، والمراد منه هنا القصد والغرض من البناء ، والتقوى الاسم الجامع لما يرضي الله ويقي من سخطه ، أي ان مسجداً قصد ببنائه منذ وضع أساسه في أول يوم تقوى الله تعالى باخلاص العبادة له وجمع المؤمنين فيه على ما يرضيه من التعارف والتعاون على البر والتقوى هو أحق أن تقوم فيه أيها الرسول مصليا بالمؤمنين من غيره ، ولا سيما ذلك المسجد الذي وضع أساسه على المقاصد الاربعة الخبيثة ، والسياق يدل على أن المسجد الذي أسس على التقوى من أول يوم مسجد قباء ، وقد صح في أحاديث رواها الامام احمد ومسلم والترمذي والنسائي وغيرهم ان النبي ﷺ سئل عنه فأجاب بانه مسجده الذي في المدينة ففي رواية مسلم عن أبي سعيد انه لما سأله أخذ ﷺ كفا من حصباء فضرب به الارض ثم قال « هو مسجدكم هذا » وفي رواية لاحمد عنه وعن سهل بن سعد « هو مسجدي هذا » ولفظ الآية لا يمنع من ارادة كل من المسجدين ، لان كلا منهما قد بناه النبي ﷺ ووضع أساسه على التقوى من أول يوم شرع فيه ببنائه أو من أول يوم وجد في موضعه (والتحقيق أن « من » تدخل على الزمان والمكان)

﴿ فيه رجال يحبون أن يتطهروا ﴾ هذه جملة وصف بها المسجد الذي أسس على التقوى تؤكد ترجيح القيام مع أهله المطهرين في مقابل أهل مسجد الضرار وهم رجس والمعنى : فيه رجال يعمرونه بالاعتكاف وإقامة الصلاة ، وذكر الله وتسبيحه فيه بالغدو والآصال ، يحبون أن يتطهروا بذلك من كل ما يعلق بأنفسهم من درن الآثام ، أو التقصير في إقامة دعائم الاسلام ، كما تطهر المتخلفون منهم عن غزوة تبوك بالتوبة والصدقات ، ومن لوازم عمارته المعنوية والعكوف فيه طهارة الثوب والبدن الحسية ، وطهارة الوضوء والغسل الحكمية ، فالتطهر صيغة مبالغة تشمل الطهارتين النفسية والبدنية ، ووردت الروايات بكل منهما ، ولكل من الاستعمالين موضع من التنزيل ، والجمع بينهما هو الاولى

﴿ والله يحب المطهرين ﴾ أي المبالغين في الطهارة الروحية والجسدية، وانما يبالغون فيها اذا أحبوها، وحينئذ تكمل انسانيتهم المؤلفة من الروح والجسد. ولا يطيق نجاسة البدن وقذارته إلا ناقص الفطرة والادب، وأنقص منه من يطيق خبث النفس بالاصرار على المعاصي والعادات القبيحة، والتخلق بالاخلاق الذميمة. دع رجس المنافقين المرائين في الاعمال، الاشحة الباخلين بالاموال. وأما حب الله المستحقين لحبه، فهو من صفات كماله، لان العالم بتفاوت الاشياء في الحسن والقبح، والكمال والنقص، يكون من أفضل صفاته حب الجمال والكمال والحق والخير وبغض اضدادها وكراهتها. وحبه اللائق بربوبيته منزه عن مشابهة حبنا، كتنزه ذاته وسائر صفاته عن مشابهة ذواتنا وصفاتنا، ولكن يظهر أثره في المحبوبين من عباده في أخلاقهم وأعمالهم، ومعارفهم وآدابهم، واعلاه ما أشار اليه حديث البخاري القدسي «ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه فاذا احببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به» الخ(١)

وقد قال الله تعالى معللا ما وعظ به نساء نبيه ﷺ من أمره ونهيه لهن بما يليق بمكانتهن من رسوله (انما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا)

وقد فسر بعض المفسرين محبته تعالى للمطهرين برضاه عنهم واحسانه اليهم، وهو تأويل فسر به اللفظ ببعض لوازمه، فان كان هربا من نظرية من قال من المتكلمين ان اتصاف الله تعالى بالحب محال، لأنه انفعال نفسي يستحيل على ذي الجلال، فيجب تفسيره بلازمه المذكور كما قال بعضهم في الرحمة وغيرها من الصفات — فهو هروب من مذهب السلف الحق، ووقوع فيما فروا منه بالتأويل، وهو تشبيه الله بخلقه. إذ يقال لهم إن الرضا عاطفة نفسية كالحب، والاحسان عمل بدني كبسط اليد بالبذل، وهما يسندان الى الناس فلا يصح أن يوصف بهما الخالق عز وجل، لانه تشبيه له بالخلق، وكذا العلم والقدرة والمشيئة والكلام، وغيرها من صفات الذات، فان كلا منها وضعت في اللغات، لمعانيها المعروفة في المخلوقات، كعلوم العلم صور المعلومات المنتزعة منها في الذهن، وهو بهذا المعنى محال على الله عز وجل. وإذا كان الامر كذلك فالحق أن يوصف تعالى بما وصف به نفسه على ظاهره بقيوده

«١» راجع هذا البحث في ص ٢٣٩ ج ١٠ تفسير

الثلاثة التي قررها السلف الصالح: اي بلاتعطيل ولا تمثيل ولاتأويل. فعلمه تعالى انكشاف يليق به، وحبه معنى نفسي يليق به الخ

ذكر السيوطي في الدر المنثور عدة روايات حاصلها ان النبي ﷺ سأل أهل قباء عن سبب ثناء الله تعالى عليهم بهذه الآية فأجابوه بانهم يستنجون بالماء. وفي بعضها انهم يتبعون الحجارة بالماء. وذكر ان ابن ماجه وابن المنذر وابن أبي حاتم والدارقطني والحاكم وغيرهم رووا عن طلحة بن نافع قال حدثني ابو أيوب وجابر بن عبدالله وأنس بن مالك (رض) ان هذه الآية لما نزلت (فيه رجال يحبون أن يتطهروا) قال رسول الله ﷺ «يامعشر الانصار ان الله قد أثنى عليكم خيراً في الطهور فما طهوركم هذا؟» قالوا نتوضأ للصلاة ونغتسل من الجنابة. قال «فهل مع ذلك غيره؟ قالوا ان أحدنا إذا خرج من الغائط أحب أن يستنجي بالماء قال «هو ذاك فعليكموه»

أقول طلحة بن نافع هذا ثقة روى عنه الجماعة كلهم ولكن رواية البخاري عنه مقرونة بغيره وهي أربعة أحاديث رواها عن جابر. ولعله اقتصر عليها لقول شيخه علي بن المديني إنه لم يرو عن جابر غيرها، أي لم يصح عنده غيرها. وقال ابو حاتم انه لم يسمع من أبي ايوب، ولكنه هنا صرح بالسماع منه فيما رواه من ذكر وغيرهم. وحديثه هذا على كل حال أقوى من أحاديث سؤال النبي ﷺ أهل مسجد قباء وجعله الثناء عليهم، وهو في سؤال الانصار، والمسؤلون منهم كلهم من سكان المدينة، ويؤيده الاحاديث الصحيحة الناطقة بان المسجد الذي أثنى الله عليه وعلى أهله هو مسجده فيها. وقد قلنا انه لا مانع من ارادة كل منهما، وهو أولى من القول بتعارضهما، كما أن الروايات فيهما لا تنافي ارادة نوعي الطهارة كليهما، ويؤيد إرادة الطهارة المعنوية قوله تعالى

﴿أفمن أسس بنيانه على تقوى من الله ورضوان خير؟ أم من أسس بنيانه على شفا جرف هارٍ فانهار به في نار جهنم؟﴾ هذا بيان مستأنف للفرق بين أهل المسجدين في مقاصدهما منها: أهل مسجد الضرار الذي زادوا به رجساً إلى

وجسمهم ، وأهل مسجد التقوى وهم الرسول ﷺ وانصاره الذين يحبون أكمل الطهارة لظاهرهم وباطنهم ، فاستفادوا بذلك محبة الله لهم ، وورد بصيغة استفهام التقرير ، لما فيه من تنبيه الشعور وقوة التأثير ، والبنيان مصدر كالعمران والغفران ، ويراد به المبني من دار أو مسجد وهو المتعين هنا. وتقدم آنفا معنى التأسيس والشفا (بالفتح والقصر) الحرف والشفير للجرف والنهر وغيره. والجرف (بضمتين) جانب الوادي ونحوه الذي يتحفر أصله بما يجرفه السيل منه فيجتاح أسفله فيصير مائلا للسقوط. والهار الضعيف المتصدع المتداعي للسقوط[1] وهذا التعبير يضرب مثلا لما كان في منتهى الضعف والاشراف على الزوال ، وهو من أبلغ الامثال ، لمنتهى الوهي والانحلال

المراد بالمثل هنا بيان ثبات الحق الذي هو دين الاسلام وقوته ودوامه ، وسعادة أهله به ، وذكره بأثره وثمرته في عمل أهله وجماعها التقوى ، وبجزائهم عليه وأعلاه رضوان الله تعالى ، وبيان ضعف الباطل واضمحلاله ، ووهيه وقرب زواله ، وخيبة صاحبه وسرعة انقطاع آماله ، وشر أهله المنافقين ، وشر أعمالهم ما اتخذوه من مسجد الضرار للمفاسد الاربعة المبينة في الآية الاولى من هذا السياق

وقد ذكر في وصف بنيان الفريق الاول وهم المؤمنون المشبه دون المشبه به لانه المقصود بالذات ولم يذكر فيما قبله من عملهم إلا المبالغة في الطهارة . وذكر من وصف بنيان الفريق الثاني الهيئة المشبه بها دون المشبه ، لانه ذكر فيما قبل مقاصدهم منها كلها ، وهذا من دقائق إيجاز القرآن

تقول في المعنى الجامع بين المشبه به في الفريقين: أفمن اسس بنيانه الذي يتخذه مأوى وموئلا له، يقيه من فواعل الجو وعدوان كل حي، وموطنا لراحته ، وهناء معيشته، على أمتن أساس وأثبته، وأقواه على مصابرة العواصف والسيول ، وصد الهوام والوحوش ـ هو خير بنيانا ، وراحة وأمانا ؟ أم من اسس بنيانه على أوهى القواعد وأقلها بقاء واستمساكا، فهي عرضة للانهيار، في كل لحظة من ليل او نهار ؟

وأما معنى المشبه المقصود بالذات في كل منهما فيصور هكذا: أفمن كان مؤمنا صادقا يتقي الله في جميع أحواله ، ويبتغي رضوانه في أعماله ، بتزكية نفسه بها ونفع

(١) اصله هائر من هار يهور فهو هائر وهار، ومثله شائك وشاك، وصائت وصات

عياله ، (والخلق كلهم عيال الله كما ورد في الخبر عن رسوله ﷺ) ـ افمن كان كذلك خير عملا ، وأفضل عاقبة وأملا ، وممن نزل فيهم (ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات كانت لهم جنات الفردوس نزلا) أم من هو منافق مرتاب ، مراء كذاب ، يبتغي بأفضل مظاهر اعماله الضرر والضرار ، وتقوية أعمال الكفر وموالاة الكفار ، وتفريق جماعة المؤمنين الاخيار ، والارصاد لمساعدة من حارب الله ورسوله من الاشرار ، وما يكون من عاقبة ذلك في الدنيا من الفضيحة والعار ، والخزي والبوار ، وفي الآخرة من الانهيار في نار جهنم وبئس القرار ؟

وفي معنى هذا المثل (١٣ : ١٧ أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها) الآية . وخلاصة المثلين ان الايمان الصادق ، وما يلزمه من العمل الصالح . هو المثمر الثابت ، وان النفاق وما يستلزمه من العمل الفاسد ، هو الباطل الزاهق ، وهذا المعنى يوافق قول علماء الكون إنه لا يتنازع شيئان في الوجود إلا ويكون الغالب هو الاصلح منهما . ويسمون هذه السنة (ناموس الانتخاب الطبيعي وبقاء الامثل) وسبق بيانه في هذا التفسير (١)

صدق الله العظيم ، فقد ثبت الله المؤمنين بالقول الثابت ، وهداهم بايمانهم إلى العمل الصالح ، ففتحوا البلاد ، وأقاموا الحق والعدل في العباد ، وأهلك الله المنافقين ، فلم يكن لهم من أثر صالح في العالمين ، هكذا كان وهكذا يكون ، ولكن المنافقين لا يفقهون ولا يعتبرون ، وشر النفاق وأضره نفاق العلماء ، للملوك والامراء (٢)

﴿ والله لا يهدي القوم الظالمين ﴾ أي مضت سنته في ارتباط العقائد والاخلاق بالاعمال ، بان الظالم لا يكون مهتديا في أعماله إلى الحق والعدل ، فضلا عن الرحمة والفضل . ولا أظلم في الناس من المنافقين (٣ : ٨٦ كيف يهدي الله قوما كفروا بعد ايمانهم وشهدوا ان الرسول حق وجاءهم البينات والله لا يهدي القوم الظالمين)

﴿ لا يزال بنيانهم الذي بنوا ريبة في قلوبهم ﴾ الريبة اسم من الريب وهو ما

(١) تجده في مواضع من اجزائه أولها آخر صفحة من الجزء الثاني
(٢) راجع ص ٥١٧ و ٥٣٩ ج ١٠ تفسير

تضطرب فيه النفس ، ويتردد الوهم ويسوء الظن ، فيكون صاحبه منه في شك وحيرة إن لم يكن مثاره الشك . قال قوم صالح عليه السلام له، منكرين دعوته إياهم إلى عبادة الله وحده (١١ : ٦٢ وإنا لفي شك مما تدعونا إليه مريب) ولهذا الاستعمال أمثال في التنزيل ، وهو صريح في ان الشك مثار للريب وموقع فيه لا انه عينه ، وقد يفسر به باعتبار لزومه له وايقاعه فيه . قال الشاعر:

وكنت إذا ماجئت ليلى تبرقعت وقد رابني منها الغداة سفورها

والظاهر ان ارتيابهم فيه كان منذ بنوه الى أن أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بهدمه فهدم ، وذلك انهم لسوء نيتهم في بنائه كانوا يخافون ان يطلع الله رسوله على مقاصدهم السوءى فيه ، وكان ذلك شان سائر اخوانهم كما تقدم في قوله تعالى (٦٤ يحذر المنافقون ان تنزل عليهم سورة تنبئهم بما في قلوبهم) وذكرنا في تفسيرها قوله تعالى (يحسبون كل صيحة عليهم) (ص ٥٢٥ ـ ٥٢٨ ج ١٠) وأجدر بهم أن يكونوا بعد هدمه أشد ارتيابا ، وأكثر اضطرابا ، بما يحذرون من عقابهم في الدنيا كما أنذرتهم هذه السورة مرارا ، وأن يستمر ذلك

ملازما لهم ﴿ إلا ان تقطع قلوبهم ﴾ قرأ ابن عامر وحفص عن نافع وحمزة (تقطع) بفتح التاء وتشديد الطاء من التقطع ، وقرأ الباقون بضم التاء من التقطيع، أي إلا أن تقطع الريبة قلوبهم أفلاذاً، فتتقطع بها وتكون جذاذا، وقرأ يعقوب (إلى) بدل (إلا) وفسر ذلك بالموت والهلاك، وبالحسرة والندم المقتضي للتوبة ، وقال الزمخشري وتبعه معتادو الاخذ عنه: لا يزال هدمه سبب شك ونفاق زائد على شكهم ونفاقهم، لا يزول وسمه عن قلوبهم، ولا يضمحل أثره (إلا أن تقطع قلوبهم) قطعا، وتفرق أجزاء ، فحينئذ يسلون عنه ، واما مادامت سالمة مجتمعة، فالريبة باقية فيها متمكنة ، فيجوز أن يكون ذكر التقطع تصويراً لحال زوال الريبة عنهم ، ويجوز أن يراد حقيقة تقطيعها وما هو كائن منه بقتلهم ، أو في القبور أو في النار . وقيل معناه الا

ان يتوبوا توبة تتقطع بها قلوبهم ندما وأسفا على تفريطهم اهـ ﴿ والله عليم حكيم ﴾ فحكم في أمرهم وبين من حالهم ما اقتضته الحكمة والعلم المحيط بكل شيء .

(١١١) إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ، وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ، وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ؟ فَٱسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ، وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ (١١٢) ٱلتَّـٰٓئِبُونَ ٱلْعَـٰبِدُونَ ٱلْحَـٰمِدُونَ ٱلسَّـٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّـٰجِدُونَ ٱلْـَٔامِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱلْحَـٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ.

هاتان الآيتان في بيان حال المؤمنين حق الايمان ، البالغين فيه ماهو غاية له من الكمال ، وضعتا بعد بيان حال المنافقين ، وأصناف المؤمنين المقصرين ، ومنهما تعرف جميع درجات المسلمين ، ولا سيما المتخلفين عن الجهاد في سبيل الله

﴿ ان الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بان لهم الجنة ﴾ هذا تمثيل لاثابة الله المؤمنين على بذل أنفسهم وأموالهم في سبيله بتمليكهم الجنة دار النعيم الابدي، والرضوان السرمدي ، تفضل جل جلاله وعم نواله بجعلها من قبيل من باع شيئاً هوله لآخر، لطفاً منه تعالى وكرما وتكريما لعباده المؤمنين بجعلهم كالمتعاقدين معه كما يتعاقد البيعان على المنافع المتبادلة وهو عز وجل المالك لانفسهم اذ هو الذي خلقها ، والمالك لاموالهم اذ هو الذي رزقها ، وهو غني عن أنفسهم وأموالهم ، وانما المبيع

والثمن له وقد جعلهما بكرمه لهم ، وقوله ﴿ يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون ﴾ بيان لصفة تسليم المبيع وهو انهم يقاتلون في سبيل الحق والعدل الموصلة إلى مرضاته تعالى فيبذلون أنفسهم وأموالهم فيكونون اما قاتلين لاعدائه الصادين عن سبيله ، وإما مقتولين شهداء في هذه السبيل ـ قرأ الجمهور بتقديم (يقتلون) المبني للفاعل، وحمزة والكسائي بتقديم المبني للمفعول ، فدلت القراءتان على أن الواقع هو أن

oberkandil.com

يقتل بعضهم ويسلم بعض ، وانه لافرق بين القاتل والمقتول في الفضل ، والمثوبة عند الله عز وجل، إذ كل منهما في سبيله لاحباً في سفك الدماء ، ولا رغبة في اغتنام الاموال ، ولا توسلا الى ظلم العباد ، كما يفعل عباد الدنيا من الملوك ورؤساء الاجناد

﴿ وعداً عليه حقا في التوراة والانجيل والقرآن ﴾ أي وعدهم بذلك وعداً أوجبه لهم على نفسه ، وجعله حقا عليه أثبته في الكتب الثلاثة المنزلة على أشهر رسله ، ولا تتوقف صحة هذا الوعد على وجوده في التوراة والانجيل اللذين في أيدي أهل الكتاب بنصه لما أثبتناه من ضياع كثير منهما ، وتحريف بعض ما بقي لفظا ومعنى ، بل يكفي اثبات القرآن لذلك وهو مهيمن عليها . (راجع ص٣٤٢ ج١٠)

﴿ ومن أوفى بعهده من الله ؟ ﴾ أي لا أحد أوفى بعهده وأصدق في انجاز وعده من الله عز وجل ، إذ لا يمنعه من ذلك عجز عن الوفاء ، ولا يمكن أن يعرض له فيه التردد او البداء ، (١) ﴿ فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به ﴾ الاستبشار الشعور بفرح البشرى أو استشعارها ، الذي تنبسط به بشرة الوجه فيتألق نورها ، والجملة تقرير لتمام صفقة البيع من الجانبين ﴿ وذلك هو الفوز العظيم ﴾ الذي لا يتعاظمه فوز ، دون ما يتقدمه من النصر والسيادة والملك ، الذي لا يعد فوزاً إلا بجعله وسيلة لاقامة الحق والعدل . أعلى الله تعالى مقام المؤمنين المجاهدين في سبيله بجعلهم بفضله مالكين معه ، ومبايعين له ، ومستحقين للثمن الذي بايعهم به ، وأكد لهم أمر الوفاء به وانجازه ، ويروى عن جدنا الامام جعفر الصادق عليه السلام في معنى الآية

أثامن بالنفس النفيسة ربها ... فليس لها في الخلق كلهم ثمن
بها أشتري الجنات ، إن أنا بعتها ... بشيء سواها إن ذلكم غبن (٢)
إذا ذهبت نفسي بدنيا أصبتها ... فقد ذهبت مني وقد ذهب الثمن

«١» البداء بالفتح أن يبدو لك في الامر ما لم يكن في علمك ولا حسابك فترجع عما كنت تريد امضاءه فيه (٢) الغبن بالتحريك وبفتح فسكون واحد من غبنه في البيع إذا غلبه بغش أو خديعة

ويروى عنه انه قال : ليس لأبدانكم ثمن إلا الجنة فلا تبيعوها إلا بها. ومعناه ان الذي يقتل أو يموت في سبيل الله كان باذلا لبدنه الفاني لا لروحه الباقية، وليس معناه أن يبيع لربه جسده دون نفسه الناطقة كما توهم بعض المتفلسفين.

أخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه عن جابر بن عبدالله قال نزلت هذه الآية على رسول الله ﷺ وهو في المسجد فكبر الناس في المسجد فأقبل رجل من الانصار ثانياً طرفي ردائه على عاتقه فقال يارسول الله أنزلت فينا هذه الآية ؟ قال « نعم » فقال الانصاري بيع ربيح ، لانقيل ولا نستقيل - يعني البيع -

وأخرج ابن جرير ان عبدالله بن رواحة قال لرسول الله ﷺ اشترط لنفسك ولربك فقال « أشترط لربي أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً ، واشترط لنفسي أن تمنعوني مما تمنعون منه أنفسكم وأموالكم » قالوا فاذا فعلنا ذلك فما لنا ؟ قال « الجنة » قال : ربح البيع لانقيل ولا نستقيل . فنزلت الآية . وظاهر هذا انها نزلت في مبايعة الانصار للنبي ﷺ وتفصيله فيما يلي وان لم يصرح بانه سبب النزول.

وأخرج ابن سعد عن عباد بن الوليد بن عبادة بن الصامت ان سعد بن زرارة أخذ بيد رسول الله ﷺ ليلة العقبة فقال : يأيها الناس هل تدرون علام تبايعون محمداً ؟ انكم تبايعونه على أن تحاربوا العرب والعجم والجن والانس كافة. فقالوا نحن حرب لمن حارب ، وسلم لمن سالم . فقال أسعد بن زرارة يارسول الله اشترط علي فقال « تبايعوني على أن تشهدوا أن لا إله إلا الله وأني رسول الله ﷺ ، وتقيموا الصلاة وتؤتوا الزكاة ، والسمع والطاعة، ولا تنازعوا الامر أهله وتمنعوني مما تمنعون منه أنفسكم وأهليكم » قالوا نعم، قال قائل الانصار: نعم هذا لك يارسول الله فما لنا ؟ قال « الجنة والنصر »

وأخرج ابن سعد عن الشعبي قال : انطلق النبي ﷺ بالعباس بن عبدالمطلب وكان ذا رأي إلى السبعين من الانصار عند العقبة فقال العباس ليتكلم متكلمكم ولا يطيل الخطبة فان عليكم للمشركين عينا ، وان يعلموا بكم يفضحوكم. فقال قائلهم : وهو ابو امامة أسعد يامحمد سل لربك ما شئت ثم سل لنفسك ولاصحابك ماشئت، ثم أخبرنا مالنا من الثواب على الله وعليكم إذا فعلنا ذلك، فقال « أسألكم

لربي أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً ،وأسألكم لنفسي وأصحابي أن تؤوونا وتنصرونا وتمنعونا مما تمنعون منه أنفسكم» (١) قال فمالنا إذا فعلنا ذلك؟ قال الجنة» فكان الشعبي إذا حدث هذا الحديث قال ما سمع الشيب والشباب بخطبة أقصر ولا أبلغ منها

ومعنى نزولها في مبايعة الانصار انها تدخل في عموم الآية دخولا أولياً لا انها خاصة بها . وقد روى ابن مردويه من حديث أبي هريرة مرفوعا « من سل سيفه في سبيل الله فقد بايع الله » وروى ابن أبي حاتم وابو الشيخ عن الحسن قال : ماعلى ظهر الارض مؤمن إلا وقد دخل في هذه البيعة . وفي لفظ : اسعوا إلى بيعة بايع الله بها كل مؤمن (ان الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم) ولكن العجب ممن يدعون الايمان وهم ينكثون بيعة الله عز وجل فهم لا يبذلون أنفسهم ولا شيئاً من أموالهم في سبيل الله ، وانما يطلبون الجنة بغير ثمنها كما يطلبون سعادة الدنيا وسيادتها من غير طريقها، ولا طريق لها إلا الجهاد بالمال والنفس. والقرآن حجة عليهم وهو حجة الله البالغة التي لا يدحضها شيء وهي تدحض كل شيء .

ثم وصف الله تعالى هؤلاء المؤمنين البائعين أنفسهم وأموالهم لله تعالى بجنته ودار

كرامته، فقال ﴿ التائبون ﴾ أي هم التائبون الكاملون في توبتهم وهي الرجوع إلى الله تعالى عن كل ما يبعد عن مرضاته ، وتختلف باختلاف احوال أهلها ، فتوبة الكفار الذين يدخلون في الاسلام هي الرجوع عن الكفر الذي كانوا عليه من شرك وغيره كما تقدم في قوله تعالى (١١ فان تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فاخوانكم في الدين) وتوبة المنافق من النفاق وتقدم ذكرها في هذه السورة أيضاً ، وتوبة العاصي من المعصية ، ومنه توبة من تخلف عن غزوة تبوك من المؤمنين ، وتقدم قريباً ذكر من تاب منهم ومن أرجيء أمره ، ـ وتوبة المقصر في شيء من البر وعمل الخير انما تكون في التشمير فيه والاستزادة منه ـ وتوبة من يغفل عن ربه ، انما تكون في الاكثار من ذكره وشكره ، وسيأتي ذكر توبة الله تعالى على الجميع في الآيتين (١١٧ و ١١٨)

---

(١) المنع الحماية والدفاع

﴿ العابدون ﴾ لله ربهم وحده مخلصين له الدين في جميع عباداتهم في عامة أوقاتهم ، لايتوجهون إلى غيره بدعاء ولا استعانة، ولا يتقربون إلى سواه بعمل مما يقصد به القربة ومثوبة الآخرة

﴿ الحامدون ﴾ لله ربهم في السراء والضراء بالثناء عليه بلفظ الحمد وغيره من الذكر المشروع الدال على الرضاء منه تعالى. ومهما يصب الانسان من مصائب الدنيا فانه يبقى له من النعم فيها وفي الدين بل يبقى له من اللطف الالهي في نفس المصائب مايجب عليه أن يحمد الله ويشكره عليه (وتقدم بيان الحمد والعبادة في تفسير سورة الفاتحة وغيرها)

﴿ السائحون ﴾ في الارض يجوبون الاقطار لغرض صحيح من علم أو عمل كالجهاد في سبيل الله ، وروي عن عطاء، او للهجرة حيث تشرع الهجرة وروي عن عبد الرحمن بن زيد، قال السائحون هم المهاجرون ليس في أمة محمد سياحة إلا الهجرة . او لطلب العلم النافع للسائح في دينه أو دنياه او النافع لقومه وأمته وروي عن عكرمة وخصه بعضهم بطلب الحديث (لانهم كانوا يسافرون من مصر إلى أخرى للرواية) او للنظر في خلق الله وأحوال الشعوب والامم للاعتبار والاستبصار ومعرفة سنن الله تعالى وحكمه وآياته ، وهذا ماتدل عليه الآيات المتعددة في الحث على السير في الارض كما بيناه في الاصلين (١٣ و ١٤) من الاصول العلمية التي استنبطناها من سورة الانعام (ص ٢٨٩ ج ٨)

وروي عن عبد الله بن مسعود ان المراد بالسائحين الصائمون وقاله في تفسير (سائحات) من سورة التحريم ، وتعلق به مصنفو التفاسير لاستبعادهم مدح الله تعالى النساء بالسياحة في الارض، وانما يحظر في الاسلام سفر المرأة منفردة دون زوجها اوأحد محارمها، واما إذا كانت تسيح مع الزوج والمحرم حيث يسيح لغرض صحيح من علم نافع او عمل صالح او طلب الصحة او الرزق فلا اشكال في مدحها بالسياحة . بل ينبغي اشتراك الرجال والنساء في جميع أعمال الحياة النافعة ، وأزيد على ذلك السياحة والسفر لطلب الرزق الحلال من تجارة وغيرها.

وإذا صح ان النبي ﷺ وأصحابه كانوا يصحبون نساءهم في غزواتهم عند الامكان ، وهن غير مكلفات بالقتال ، بل يساعدن عليه بتهيئة الطعام والشراب ، وتضميد الجراح وغير ذلك كما تقدم في تفسير (٧١ـ والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض) (٥٤١ ج ١٠) فلأن يصحبنهم في سائر الاسفار أولى ، وفي سفر المرأة مع زوجها احصان له ولها ، فهو مانع المسلم من التطلع في السفر إلى غيرها

وعلل سفيان بن عيينة تفسير السائحين بالصائمين بان الصائم يترك اللذات كلها كالسائح للتعبد ، ومثله أومنه قول الازهري : يسمى الصائم سائحاً لأن الذي يسيح في الارض متعبداً لايحمل زاداً فكان ممسكا عن الاكل . ولهذا التعليل خص بعضهم اطلاق وصف السائحين على الصائمين بالذين يديمون الصيام ، وأخذ بعضهم بظاهر اللفظ ، فقال يكفي في صحة الوصف صيام الفرض ، وكل ذلك ضعيف

والصوفية يخصون السائحين الممدوحين بالذين يهيمون في الارض لتربية إرادتهم ، وتهذيب أنفسهم باحتمال المشاق ، والبعد عن مظان السمعة والرياء ، لجمع القلب على الرب عز وجل بالاخلاص في عبادته ، والتكمل في منازل معرفته ، كالسياحين من الامم قبلهم ، وقد كان اطلاق السياحة بهذا المعنى ذائعاً من قبل الاسلام حتى قال صاحب القاموس : السياحة الذهاب في الارض للعبادة ومنه سمي المسيح الخ واعترضوه فيه فانما هو عرف ليس من أصل اللغة ، وتقدم معنى السياحة اللغوي في تفسير قوله تعالى (فسيحوا في الارض أربعة أشهر) وهو أول آية من هذه السورة (ص ١٥٢ ج ١٠)

وقد حدث للمتصوفة بدع في السياحة كقصد مشاهد القبور المنسوبة إلى الانبياء والصالحين للتبرك بها ، والاستمداد من أرواح من دفنوا فيها ، وكثير منهم يكون له هوى في التنقل من بلد إلى آخر فيظل هائما في الاسفار ، وينقطع بذلك عن الاعمال التي تنفع الناس وعن الزواج ، ويرتكب بعضهم فيها كثيراً من المنكرات ، ويكون لهم طمع في استجداء الناس ، والسؤال حرام إلا لضرورة ، والفقهاء ينكرون عليهم سياحتهم هذه

قال ابن الجوزي : السياحة في الارض لا لمقصود ولا إلى مكان معروف

منهي عنها . وقد روينا ان النبي ﷺ قال « لارهبانية في الاسلام ولاتبتل ولا سياحة في الاسلام » وقال الامام احمد ماالسياحة من الاسلام في شيء ولا من فعل النبيين والصالحين ، ولان السفر يشتت القلب فلا ينبغي للمريدأن يسافر إلا في طلب علم أو مشاهدة شيخ يقتدي به اه

وأقول روى ابن جرير من حديث أبي هريرة مرفوعا وموقوفا حديث «السائحون هم الصائمون» ولا يصح رفعه وروي عن عائشة وابن عباس ومجاهد وغيرهم من أقوالهم ، ومن مرسل عمرو بن دينار عن عبيد بن عمير وروى ابو داود من طريق القاسم أبي عبد الرحمن عن ابي امامة ان رجلا قال يارسول الله ائذن لي بالسياحة ؟ قال النبي ﷺ « إن سياحة أمتي الجهاد في سبيل الله عز وجل » قال الحافظ المنذري: القاسم هذا تكلم فيه غير واحد. إه أقول منهم الامام احمد كان يقول فيما يروى عنه من المناكير . إنها من قبله ، ويقول بعضهم إنها ممن روى عنه من الضعفاء لامنه ، وقال ابن حبان : كان يروي عن الصحابة المعضلات .

وللامام الغزالي في كتاب السفر من الاحياء كلام نفيس في فوائد السياحة والاعتبار بآيات الله تعالى فيها لايوجد في غيره مثله

﴿ الراكعون الساجدون ﴾ لله تعالى في صلواتهم . والصلاة تذكر تارة بلفظها وتارة ببعض أركانها كالقيام والركوع والسجود . وهذا الوصف يفيد التذكير بهذه الهيئة وتمثيلها للقاريء والسامع

﴿ الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر ﴾ تقدم معنى هذا الامر والنهي ومكانته من صفات المؤمنين في تفسير الآية (٧١) من هذه السورة (ص ٥٤١ ج ١٠) وهذه الصفة وما بعدها من الصفات المتعلقة بجماعة المؤمنين فيما يجب على بعضهم لبعض وكل ماقبلها من صفات الافراد

﴿ والحافظون لحدود الله ﴾ أي شرائعه وأحكامه التي حدد فيها مايجب وما يحظر على المؤمنين من العمل بها ومايجب على أئمة المسلمين وأولي الامر وأهل الحل والعقد منهم إقامتها وتنفيذها بالعمل في أفراد المسلمين وجماعتهم إذا أخلوا بما يجب عليهم من

الحفظ لها ﴿ وبشر المؤمنين ﴾ أي وبشر أيها الرسول المؤمنين الموصوفين بهذه البضع الصفات. ولم يذكر مايبشرهم به لتعظيم شأنه وشموله لخير الدنيا وسعادة الآخرة

ومن مباحث اللغة ان المعدودات تسرد بغير عطف وانما عطف النهي عن المنكر على الامر بالمعروف للايذان بانهما فريضة واحدة لتلازمهما في الغالب. واما عطف « الحافظون لحدود الله » على جملة ماتقدم فقيل لان التعداد قد تم بالوصف السابع من حيث إن السبعة هو العدد التام والثامن ابتداء عدد آخر معطوف عليه وان هذه الواو تسمى واو الثمانية. وأنكر هذه الواو النحاة المحققون، وقيل لأنه اجمل لما تقدم من التفصيل قبله، فلا يصح أن يجعل فرداً من أفراده فيسرد معه. وأقوى منه عندي أنه وصف جامع للتكاليف عامة، والمنهيات خاصة، والسبعة المسرودة قبله من المأمورات، ولا يحصل الكمال المؤمن بها إلا مع اجتناب المنهيات، وهو اول مايلاحظ في حفظ حدود الله قال تعالى (تلك حدود الله فلا تقربوها * تلك حدود الله فلا تعتدوها ومن يتعد حدود الله فاولئك هم الظالمون * وتلك حدود الله ومن يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه) وعلى هذا يكون معنى نظم الآية ان المؤمنين الكاملين الذين باعوا أنفسهم لله تعالى هم المتصفون بالصفات السبع، والحافظون مع ذلك لجميع حدود الله في كل أمر ونهي، ويعبر عن هذا في عرف هذا العصر بقولهم: « المثل الاعلى » ويطلقونه على الافراد النابغين في بعض الفضائل العامة، وعلى الجماعات والامم الراقية، ويكفي ان يقال فيه « المثل » في كذا. كما قال تعالى (ولما ضرب ابن مريم مثلا) وقال (وجعلناه مثلا لبني اسرائيل) او يقال: مثل عال، او مثل شريف. واما الاعلى فهو الله عز وجل كما قال عن نفسه (ولله المثل الاعلى) وقال (وله المثل الاعلى في السموات والارض وهو العزيز الحكيم)

وجملة القول فيهم أنهم الحافظون لجميع حدود الله تعالى. وخصت تلك الخلال السبع بالذكر لانها هي التي تمثل في نفس القاريء أكمل مايكون المؤمن به محافظا على حدود الله تعالى

(١١٣) مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ (١١٤) وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ، فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ، إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ (١١٥) وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ، إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (١١٦) إِنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ

تقدم في الآية الثامنين من هذه السورة ان الله تعالى لا يغفر للمنافقين لانهم كفروا بالله ورسوله الخ، فاستغفار الرسول لهم وعدمه سيان. وتقدم في سورة النساء (إن الله لا يغفر أن يشرك به (٤:٤٨ و ١١٦) وقد شرع الله للمؤمنين في أوائل سورة الممتحنة التأسي بابراهيم ﷺ والذين آمنوا معه في البراءة من قومهم المشركين ومن معبوداتهم واستثنى من هذه الاسوة استغفار ابراهيم ﷺ لأبيه فقال (إلا قول ابراهيم لأبيه لأستغفرن لك وما أملك لك من الله من شيء) وقد بين هنا حكم الاستغفار لمن ذكر ووفى عليه بقاعدة التشريع العامة التي يبنى عليها الجزاء فقال عز وجل

﴿ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين﴾ هذا نفي بمعنى النهي، فهو أبلغ من النهي المجرد، وهذا التعبير فيه يسمى نفي الشأن، وهو أبلغ من نفي الشيء نفسه، لانه نفي معلل بالسبب المقتضي له. والمعنى: ما كان من شأن النبي ولا مما يصح أن يصدر عنه من حيث هو نبي — ولا من شأن المؤمنين ولا مما يجوز أن يقع منهم من حيث هم مؤمنون — أن يدعوا الله طالبين منه المغفرة للمشركين ﴿ولو كانوا أولي قربى﴾ لهم في الاصل حق البر وصلة الرحم. وكانت عاطفة

القرابة تقتضي الغيرة عليهم وحب المغفرة لهم «ولو» هذه تفيد الغاية للمعطوف عليه يحذف حذفا مطردا للعلم به ، والمراد انه ليس مما تبيحه النبوة ولا الايمان ولا مما يصح وقوعه من أهلهما : الاستغفار للمشركين في حال من الاحوال ، حتى لو كانوا أولي قربى ، فان لم يكونوا كذلك فعدم جوازه أولى . ثم قيد الحكم بقوله تعالى

﴿ من بعد ماتبين لهم أنهم اصحاب الجحيم ﴾ أي من بعد ماظهر لهم بالدليل أنهم من أهل النار الخالدين فيها بأن ماتوا على شركهم وكفرهم ولو بحسب الظاهر كاستصحاب حالة الكفر الى الموت ، أو نزل وحي يسجل عليهم ذلك كاخباره تعالى عن أناس من الجاحدين المعاندين من اصحاب النار خالدين فيها ، أو انهم طبع على قلوبهم وختم عليها . وقوله لرسوله ﷺ (سواء عليهم أأنذرتهم ام لم تنذرهم لا يؤمنون) ومثله في المنافقين (سواء عليهم أستغفرت لهم) الخ

وقد ورد في الصحيحين وغيرهما ان هذه الآية نزلت في أبي طالب ، اذ دعاه صلى الله عليه وسلم عند ما حضره الموت الى قول (لا إله إلا الله) فامتنع وأبو طالب مات بمكة قبل الهجرة ، فهل نزلت الآية عقب موته ثم الحقت بهذه السورة المدنية لمناسبتها لاحكامها ، أم نزلت مع غيرها من براءة مبينة لحكم استغفار الرسول صلى الله عليه وسلم له ؟ وروي من طرق انها نزلت حين زار ﷺ قبر أمه واستغفر لها (١) والله أعلم والآية نص في تحريم الدعاء لمن مات على كفره بالمغفرة والرحمة وكذا وصفه بذلك كقولهم المغفور له المرحوم فلان ، كما يفعله بعض المسلمين الجغرافيين الآن ، لعدم تحققهم بمقتضى الايمان وتقيدهم بأحكام الاسلام ، ومنهم بعض المعممين والحاملين لدرجة العالمية من الازهر

أخرج أحمد والبخاري ومسلم والنسائي وغيرهم من حديث سعيد بن المسيب عن أبيه قال : لما حضرت أبا طالب الوفاة جاءه رسول الله ﷺ فوجد عنده أبا جهل وعبدالله بن أبي أمية بن المغيرة فقال « أي عم ! قل لااله إلا الله ، كلمة أحاج لك بها عند الله » فقال أبو جهل وعبدالله بن أبي أمية : أترغب عن ملة

(١) راجع هذا البحث في تفسير (٦ : ٣٥ واذ قال ابراهيم لابيه آزر) ص ٥٣٧ ـ ٥٥٣ ج ٧ تفسير

عبد المطلب ؟ فلم يزل رسول الله ﷺ يعرضها عليه ويعيدانه بتلك المقالة حتى قال ابو طالب آخر ما كلمهم : على ملة عبد المطلب . وأبى ان يقول لا اله إلا الله. فقال رسول الله ﷺ « والله لأستغفرن لك ما لم أُنْهَ عنك » فأنزل الله (ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين) وأنزل الله في أبي طالب فقال لرسول الله ﷺ (انك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء)

هذا لفظ البخاري في تفسير الآية الاخيرة من سورة القصص وأخرجه في تفسير آية براءة وفي الجنائز أيضا.

قال الحافظ في شرحه للحديث : ووقع في رواية مجاهد قال : يا ابن أخي ملة الاشياخ. ووقع في حديث أبي حازم عند مسلم والترمذي والطبري قال : لولا أن تعيرني بها قريش يقولون ما حمله على ذلك إلا جزع الموت لأقررت بها عينك . ثم قال الحافظ وروى الطبري من طريق شبل عن عمرو بن دينار قال قال النبي ﷺ «استغفر ابراهيم لابيه وهو مشرك فلا ازال أستغفر لابي طالب حتى ينهاني عنه ربي » فقال أصحابه لنستغفرن لآبائنا كما استغفر نبينا لعمه ، فنزلت

(قال) وهذا فيه إشكال لان وفاة ابي طالب كانت بمكة قبل الهجرة اتفاقا، وقد ثبت ان النبي ﷺ اتى قبر امه لما اعتمر فاستأذن ربه ان يستغفر لها فنزلت هذه الآية - والاصل عدم تكرار النزول وقد أخرج الحاكم وابن أبي حاتم من طريق أيوب بن هانيء عن مسروق عن ابن مسعود قال خرج رسول الله ﷺ يوما إلى المقابر فاتبعناه فجاء حتى جلس الى قبر منها فناجاه طويلا ثم بكى فبكينا لبكائه فقال «ان القبر الذي جلست عنده قبر امي واني استأذنت ربي في الدعاء لها فلم يأذن لي فأنزل علي (ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين)» وأخرج أحمد من حديث ابن بريدة عن ابيه نحوه ، وفيه نزل بنا ونحن معه قريب من ألف راكب ولم يذكر نزول الآية، وفي رواية الطبري من هذا الوجه لما قدم مكة أتى رسم قبر ومن طريق فضيل بن مرزوق عن عطية لما قدم مكة وقف على قبر أمه حتى سخنت عليه الشمس رجاء ان يؤذن له فيستغفر لها، فنزلت. وللطبراني من طريق عبد الله بن كيسان عن عكرمة عن ابن عباس نحو حديث ابن

مسعود وفيه : لما هبط من ثنية عسفان . وفيه نزول الآية في ذلك — فهذه طرق يعضد بعضها بعضا وفيها دلالة على تأخير نزول الآية عن وفاة ابي طالب. ويؤيده ايضا انه ﷺ قال يوم احد بعد ان شج وجهه «رب اغفر لقومي فانهم لا يعلمون» لكن يحتمل في هذا أن يكون الاستغفار خاصاً بالاحياء وليس البحث فيه — ويحتمل أن يكون نزول الآية تأخر وان كان سببها تقدم ويكون لتنزولها سببان متقدم وهو امر أبي طالب ومتأخر وهو امر آمنة، ويؤيد تأخير النزول ماتقدم في تفسير براءة من استغفاره ﷺ للمنافقين حتى نزل النهي عن ذلك، فان ذلك يقتضي تأخير النزول وان تقدم السبب ، ويشير الى ذلك أيضا قوله في حديث الباب «وأنزل الله في أبي طالب (انك لا تهدي من أحببت)» لانه يشعر بأن الآية الاولى نزلت في ابي طالب وفي غيره ، والثانية نزلت فيه وحده ، ويؤيد تعدد السبب ما أخرج أحمد من طريق ابي اسحاق عن ابي الخليل عن علي قال سمعت رجلا يستغفر لوالديه وهما مشركان فذكرت ذلك للنبي ﷺ فأنزل الله (ما كان للنبي) الآية وروى الطبري من طريق ابن ابي نجيح عن مجاهد قال قال المؤمنون ألا نستغفر لآبائنا كما استغفر ابراهيم لابيه ؟ فنزلت . ومن طريق قتادة قال ذكرنا له ان رجالا فذكر نحوه . وفي الحديث ان من لم يعمل خيراً قط اذا ختم عمره بشهادة أن لا إله الا الله حكم باسلامه ، وأجريت عليه احكام المسلمين ، فان قارن نطق لسانه عقد قلبه نفعه ذلك عند الله تعالى بشرط أن لا يكون وصل الى حد انقطاع الامل من الحياة وعجز عن فهم الخطاب، ورد الجواب، وهو وقت المعاينة ، واليه الاشارة بقوله تعالى (وليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى اذا حضر أحدهم الموت قال اني تبت الآن) والله أعلم اه كلام الحافظ وقد تعددت الروايات في استغفار بعض الصحابة لآبائهم وأولي قرباهم من المشركين تأسيا به ﷺ حين استغفر لعمه حتى نزل النهي فكفوا

﴿ وما كان استغفار ابراهيم لأبيه ﴾ مما يدخل في عموم تأسيكم به على إطلاقه، فانه ما كان وما وقع لسبب ولا علة ﴿ إلا عن موعدة وعدها إياه ﴾ في حياته

إذ كان يرجو ايمانه فقال له (٦٠: ٤ لأستغفرن لك وما أملك لك من الله من شيء) أي لا أملك لك هداية ولا نجاة وانما أملك دعاء الله تعالى. وقد وفى بوعده وما كان إلا وفياً كما شهد له تعالى بقوله (وابراهيم الذي وفّى) فكان من دعائه (٢٦: ٨٦ واغفر لابي انه كان من الضالين ٨٧ ولا تخزني يوم يبعثون ٨٨ يوم لا ينفع مال ولا بنون ٨٩ إلا من أتى الله بقلب سليم) اي من الشرك والكفر والشك المقتضي للنفاق ، فمن استغفر لحي يرجو إيمانه يقصد سؤال الله ان يهديه لما يكون به أهلا للمغفرة فلا بأس

﴿ فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه ﴾ قال ابن عباس : لم يزل ابراهيم يستغفر لأبيه حتى مات فلما مات تبين له أنه عدو لله فتبرأ منه . وفي رواية عنه: فلما تبين له انه عدو لله يقول لما مات على كفره . وقال قتادة تبين له حين مات وعلم أن التوبة انقطعت عنه . وقيل انه تبين له ذلك بوحي من الله تعالى، فحينئذ تبرأ منه ومن قرابته ، وترك الاستغفار له كما هو مقتضى الايمان (لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم) الآية

ورد أن ابراهيم يعد من الخزي له يوم القيامة أن يكون أبوه في النار كما رواه البخاري من حديث رؤيته في النار وأنه يقول « يارب انك وعدتني أن لا تخزني يوم يبعثون، فأي خزي أخزى من أبي الأبعد» فيمسخ الله أباه ذيخا ـ وهو ذكر الضباع الكثير الشعر ـ حتى لا يخزى ابراهيم ابنه برؤيته في النار على صورته المعروفة له ولقومه. وقد تقدم لفظ الحديث في قصة ابراهيم مع أبيه من تفسير سورة الانعام (ص ٥٣٩ ج ٧)

﴿ ان ابراهيم لأواه حليم ﴾ هذه الجملة المؤكدة بوصف ابراهيم عليه السلام بالمبالغة في خشية الله والخشوع له ، وبالحلم والثبات في أموره كلها ، تعليل لامتناعه عن الاستغفار لابيه بعد العلم برسوخه في الشرك وعداوة الله عز وجل. الأواه الكثير التأوه والتحسر وانما يتأوه ابراهيم من خشية الله ويتحسر على المشركين من قومه ولاسيما أبيه ، ويطلق الاواه على الخاشع الكثير الدعاء والتضرع لله ـ وأصل التأوه قول « أوّهْ » اوآه (بالكسر منونا وغير منون) أو واه ، أو اوه ، . وفي

حديث مرفوع في التفسير المأثور « الأواه الخاشع المتضرع » وعن ابن عباس فيه روايات منها أنه المؤمن أو الموقن بلسان الحبشة ، والحليم الذي لا يستفزه الغضب ولا يعبث به الطيش ، ولا يستخفه الجهل أو هوى النفس ، ومن لوازمه الصبر والثبات والصفح والتأني في الأمور واتقاء العجلة في كل من الرغب والرهب وذهب الزمخشري الى ان الجملة تعليل لما كان من استغفاره لابيه، قال بعد تفسير الاواه بالذي يكثر التأوه : ومعناه أنه لفرط ترحمه ورقته وحلمه كان يتعطف على أبيه الكافر ويستغفر له مع شكاسته عليه وقوله (لارجمنك) اه

﴿ وما كان الله ليضل قوما بعد إذ هداهم ﴾ أي وما كان من شأن الله تعالى في حلمه ورحمته ، ولا من سننه في خلقه التي هي مظهر عدله وحكمته ، أن يصف قوما بالضلال ، ويجري عليهم أحكامه بالذم والعقاب ، بعد إذ هداهم الى الايمان ، وشرح صدروهم بالاسلام ، بمجرد قول أو عمل صدر عنهم بخطأ الاجتهاد ﴿ حتى يبين لهم ما يتقون ﴾ من الاقوال والافعال ، بيانا جليا واضحا لا شبهة فيه ولا إشكال ﴿ ان الله بكل شيء عليم ﴾ فهو يشرع لهم من الاحكام ما تكمل به فطرتهم ، ويستقيم به رأيهم وفهمهم ، فيبين لهم مهمات الدين بالنص القاطع حتى لا يضل فيه اجتهادهم باهواء نفوسهم ، ويترك لهم مجالا للاجتهاد فيما دون ذلك من مصالحهم ، فهو لهذا لم يؤاخذ ابراهيم في استغفاره لابيه قبل أن يتبين له حاله ، وكذلك لا يؤاخذ النبي والذين آمنوا بما سبق لهم من الاستغفار لوالديهم وأولي القربى منهم قبل هذا التبيين لحكم الله في ذلك ، وان كان من شأنه أن يعلم أنه من لوازم الايمان، قال مجاهد في تفسير الجملة: بيان الله للمؤمنين في الاستغفار للمشركين خاصة، وفي بيان طاعته ومعصيته عامة، ما فعلوا أو تركوا. اه

يعني ان الآية عامة وان نزلت في مسألة استغفارهم للمشركين . وعن ابن عباس انها نزلت حين أخذوا الفداء من المشركين يوم الاسارى قال : لم يكن لكم أن تأخذوه حتى يؤذن لكم . ولكن ما كان الله ليعذب قوما بذنب أذنبوه حتى يبين لهم ما يتقون ، قال حتى ينهاهم قبل ذلك اه

وأقول الآية متأخرة النزول عن غزوة بدر ولكنها شاملة لحكمها فقد تقدم أن أخذ الفداء من الاسرى هو في معنى الاستغفار للمشركين هنا من حيث انه خلاف ما يقتضيه شأن النبوة والايمان لقوله تعالى (ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن في الارض) فهذا نفي للشأن كنفي الاستغفار هنا. ثم قال تعالى هنالك بعد عتابهم الشديد (لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب أليم) فابن عباس يفسر هذا الكتاب بحكمه تعالى في هذه الآية بأنه لايحكم بضلال قوم في شيء فيعاقبهم عليه إلا بعد أن يبين لهم مايتقون بيانا واضحا تاما لا مجال معه للاجتهاد الذي يكون عذراً في المخالفة، سواء كانت هذه الآية نزلت وقتئذ أم لا ـ فهذا حكم الله تعالى.

أخرج ابن المنذر أن عبدالله بن مسعود (رض) كان يخطب أصحابه كل عشية خميس ثم يقول : فمن استطاع منكم أن يغدو عالما أو متعلما فليفعل ولا يغدو لسوى ذلك، فان العالم والمتعلم شريكان في الخير. أيها الناس : إني والله ما أخاف عليكم أن تؤخذوا بما لم يبين لكم وقد قال الله تعالى (وما كان الله ليضل قوما بعد إذ هداهم حتى يبين لهم مايتقون) فقد بين لكم ماتتقون.

ويؤخذ من هذا كله قاعدة أن أحكام الاسلام العامة التي عليها مدار الجزاء في الآخرة، ويكلف العمل به كل من بلغه إن كان من الاحكام الشخصية وتؤخذ بها الامة كلها وينفذه أئمتها وأمراؤها فيها هو ما كان قطعي الدلالة ببيان الله تعالى ورسوله لا حجة معه لأحد في تركه. وان ماعداها منوط بالاجتهاد، فمن ظهر له من نص ظني الدلالة حكم واعتقد أنه مراد الله من الآية وجب عليه اتباعه، ومن لا فلا. كما وقع عند نزول آية البقرة في الخمر والميسر إذ فهم بعض الصحابة من قوله تعالى (وإثمهما اكبر من نفعهما) تحريمهما فترك، وبقي من لم يفهم هذا يشرب الخمر حتى بين الله تحريمها مع الميسر بيانا قطعياً بآيات المائدة. وأصل مذهب الحنفية أن الفرائض والتحريم الديني لا يثبتان إلا بالنص القطعي أو بنص القرآن القطعي بل هذا ما كان عليه علماء السلف. وتقدم تحقيق المسألة (في ص ٣٧١ ج ١٠ تفسير) والآية تدل على بطلان قول بعض المبتدعة بالمؤاخذة على مايجب بحكم

العقل كالصدق والأمانة صرح به مفسرهم الزمخشري واستثناه من حكم الآية بانه «غير موقوف على التوقيف» نعم ان حسنه يعلم بالعقل، ولكن التكليف الذي يبنى عليه جزاء الآخرة لا يصح إلا بالشرع، كما تدل عليه الآية وغيرها، وقد أمر الله بالصدق والأمانة وأوجبهما وحرم الكذب والخيانة. كما بين كل ما أراد جعله ديناً للناس. وقد أخبرنا رسوله ﷺ ان ما سكت عنه فلم يبينه لنا فهو عفو منه تعالى غير نسيان، فليس لنا ان نسأل عنه ولا أن نضع له احكاما بآراء عقولنا. وقد بسطنا هذه المسألة في تفسير (٥ : ١٠٤ يا أيها الذين امنوا لا تسألوا) الخ (راجع ص ١٣٠ ج ٧) مع الفصل الملحق به (١٣٨) الخ

﴿ان الله له ملك السموات والارض﴾ لا شريك له في خلقهما ولا في تدبير شؤونهما ولا في التشريع الديني للمكلفين فيهما ﴿يحيي ويميت﴾ أي يهب الحياة الحيوانية والحياة المعنوية الروحية بمحض قدرته ومشيئته ومقتضى سننه في التكوين والهداية الفعلية ويميت ما شاء من الابدان بانقضاء آجالها المقدرة في علمه، ومن الانفس بنكوبها عن صراط هدايته ﴿وما لكم من دون الله من ولي ولا نصير﴾ أي وليس لكم أيها المؤمنون أحد غير الله يتولى أمركم، ولا نصير ينصركم على عدوكم، فلا تحيدوا عن هدايته فيما نهاكم عنه من الاستغفار لأولي القربى الذين هم أهل الولاية والنصرة من عصبياتكم في الانساب. ولا في غير ذلك من أوامره ونواهيه

(١١٧) لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ، إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَحِيمٌ (١١٨) وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ، ثُمَّ تَابَ

عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا ، انَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (١١٩) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ

هـذه الآيات تتمة ما تقدم من موضوع توبة المتخلفين عن غزوة تبوك، أخرت على سنة القرآن في تفريق الآيات في الموضوع الواحد لانه أدنى أن لا يسأم التالي لها في الصلاة وغيرها ، وأقوى في تجديد الذكرى والتأثير في النفس كما بيناه مراراً ، وهو مناسب لما قبله من النهي عن الاستغفار للمشركين وهو ما يتاب منه

﴿ لقد تاب الله على النبي والمهاجرين والانصار ﴾ هذا خبر مؤكد بلام القسم على حرف التحقيق بين به تعالى فضل عطفه على نبيه وأصحابه المؤمنين الصادقين من المهاجرين والانصار وتجاوزه عن هفواتهم في هذه الغزوة وفي غيرها ، لاستغراقها في حسناتهم الكثيرة على كونهم لا يصرون على شيء منها ، وانما كانت هفواتهم هذه مقتضى الطباع البشرية واجتهاد الرأي فيما لم يبينه الله تعالى لهم بياناً قطعياً يعد مخالفه عاصياً . وقد بينا في تفسير الآية (١٠٤) أن للتوبة درجات تختلف باختلاف طبقات التوابين الرجاعين الى الله من كل اعراض عنه. وتوبته تعالى على عباده لها معنيان عطفه عليهم وهذا أعلاهما ـ وتوفيقهم للتوبة وقبولها منهم ، وانما يتوبون من ذنب ، وما كل ذنب معصية لله عز وجل ، وقد فسر ابن عباس التوبة على النبي ﷺ هنا بقوله تعالى في سياق هذه الغزوة (٤٣ عفا الله عنك لم أذنت لهم ؟) الآية وحققنا في تفسيرها مسألة ذنوب الانبياء وكونها من الاجتهاد الذي لم يقرهم الله عليه لان غيره خير منه[1] وأما المهاجرون والانصار (رض) وهم خلص المؤمنين ﴿ الذين اتبعوه في ساعة العسرة ﴾ فمنهم من كان ذنبه التثاقل في الخروج حتى ورد الامر الحتم فيه والتوبيخ على التثاقل الى الارض، ومنهم من كان ذنبهم السماع للمنافقين فيما كانوا يبغون من فتنة المؤمنين بالقوة والاستدراك ، وبالفعل

(١) راجع ص ٤٦٤ ج ١٠ تفسير

فأما العسرة فهي الشدة والضيق . وكانت عسرة في الزاد اذ كانت عند انتهاء فصل الصيف الذي نفدت فيه مؤنتهم من التمر، وأول فصل الخريف الذي بدأ فيه ارطاب الموسم الجديد ولا يمكن حمل شيء منه ، فكان يكتفي الواحد منهم او الاثنان بالتمرة الواحدة من التمر القديم ومنه المدود واليابس ، وقد تزود بعضهم أيضا بالشعير المسوس والاهالة الزنخة ـ وعسرة في الماء حتى كانوا ينحرون البعير على قلة الرواحل ليعتصروا الفرث الذي في كرشه ويبلوا به ألسنتهم ـ وعسرة في الظهر حتى كان العشرة يعتقبون بعيراً واحداً ـ وعسرة في الزمن اذ كان في حمارة القيظ وشدة الحر ، ولعل التعبير بساعة العسرة للتذكير بذلك الوقت العصيب ، قال جابر بن عبدالله (رض) في ساعة العسرة: عسرة الظهر وعسرة الزاد وعسرة الماء ، وقال ابن عباس لعمر (رضي الله عنهم) حدثنا من شأن ساعة العسرة ، فقال: خرجنا مع رسول الله ﷺ الى تبوك في قيظ شديد فنزلنا منزلا فأصابنا فيه عطش شديد حتى ظننا ان رقابنا ستقطع حتى ان كان الرجل لينحر بعيره فيعصر فرثه فيشربه ويجعل ما بقي على كبده فقال ابو بكر الصديق (رض) يارسول الله ان الله قد عودك في الدعاء خيراً فادع لنا ، فرفع يديه فلم يرجعها حتى قالت السماء ، فأهطلت ثم سكبت فملؤا ما معهم ، ثم ذهبنا ننظر فلم نجدها جاوزت العسكر ، أخرجه ابن جرير وابن خزيمة وابن حبان والحاكم وصححه وابن مردويه وأبو نعيم والبيهقي في دلائلهما والضياء في المختارة

﴿ من بعد ما كاد يزيغ قلوب فريق منهم ﴾ أي اتبعوه من بعد ماقرب أن يزيغ قلوب فريق منهم عن صراط الاسلام، بعصيان الرسول حين أمر بالنفير العام ، إذ تثاقل بعضهم عن النفر ووبخهم الله تعالى في الآيات ٣٨ و ٣٩ و ٤٠ (*) أو المعنى انه تاب على المؤمنين كافة من بعد ما كاد يزيغ بعضهم عن الايمان، والمراد بهم الذين تخلفوا بالفعل منهم لغير علة النفاق، وهم الذين خلطوا عملا

(*) يراجع تفسيرها في ٤٢٣ ـ ٤٣٤ ج ١٠
«تفسير القرآن الحكيم» «٩» «الجزء الحادي عشر»

صالحا وآخر سيئاً واعترفوا بذنوبهم تائبين فقبل الله توبتهم كما تقدم ، وقال هنا فيهم ﴿ ثم تاب عليهم ﴾ وهو الظاهر من العطف بثم ، وأما على التوجيه الآخر فهو تأكيد لما في أول الآية من التوبة على الجميع ﴿ انه بهم رءوف رحيم ﴾ وهذا تعليل لقبول توبتهم فالرأفة العناية بالضعيف والرفق به والعطف عليه. والرحمة أعم وأوسع وتقدم تحقيق معناها في تفسير الفاتحة. قرأ (كاد يزيغ) بالياء التحتانية حمزة وحفص ، وقرأها الباقون (تزيغ) بالفوقانية ، والمعنى واحد فيهما الا ان في هذه من احتمال الاعراب النحوي ما ليس في تلك

﴿ وعلى الثلاثة الذين خلفوا ﴾ أي وتاب أيضا على الثلاثة الذين خلفوا عن الخروج الى تبوك معه ﷺ وهم المرجون لأمر الله في الآية (١٠٦) او خلفوا بمعنى أرجئوا حتى ينزل فيهم امر الله ، وهم كعب بن مالك من بني سلمة وهلال ابن أمية من بني واقف ومرارة بن الربيع من بني عمرو بن عوف ﴿ حتى اذا ضاقت عليهم الارض بما رحبت ﴾ اي خلفوا وأبهم الله أمرهم الى ان شعروا بأن الارض قد ضاقت عليهم برحبها أي بما وسعت من الخلق خوفا من العاقبة وتألما وامتعاضاً من إعراض النبي ﷺ والمؤمنين عنهم وهجرهم اياهم في المجالسة والمحادثة والتحية ﴿ وضاقت عليهم أنفسهم ﴾ اي وضاقت أنفسهم على انفسهم ، وانما كان ذلك بما كانوا يشعرون به من ضيق صدورهم بامتلاء قلوبهم من الهم والغم حتى لا متسع فيها لشيء من البسط والسرور ، فكأنهم لا يجدون لأنفسهم مكانا ترتاح اليه وتطمئن به ﴿ وظنوا ان لا ملجأ من الله إلا اليه ﴾ واعتقدوا انه لا ملجأ لهم من سخط الله يلجؤن اليه الا اليه تعالى بان يتوبوا اليه ويستغفروه ويرجون رحمته فان الرسول البر الرؤف الرحيم باصحابه ماعاد ينظر اليهم ولا يكلمهم حتى يطلبوا دعاءه واستغفاره ، وهو ﷺ لا يشفع في الدنيا ولا في الآخرة إلا لمن ارتضى الله أن يشفع لهم ﴿ ثم تاب عليهم ﴾ اي بعد ذلك كله عطف تعالى ورجع عليهم وأنزل قبول توبتهم

أو وفقهم للتوبة المقبولة عنده ﴿ ليتوبوا ﴾ ويرجعوا اليه بعد إعراضهم عن هدايته واتباع رسوله ﷺ ﴿ ان الله هو التواب الرحيم ﴾ انه تعالى هو كثير القبول لتوبة التائبين، الواسع الرحمة للمحسنين، وتقدم مثله قريبا

وان العبرة بهذه القصة لا تتم إلا بذكر اصح الروايات وأوسعها في شرح ما بين الله من حالهم فيها وهو حديث كعب بن مالك (رض)

أخرج أحمد والبخاري ومسلم وأشهر مدوني التفسير المأثور من طريق الزهري قال أخبرني عبد الرحمن بن عبد الله بن كعب بن مالك أن عبد الله بن كعب بن مالك - وكان قائد كعب من بنيه حين عمي - قال: سمعت كعب بن مالك يحدث حديثه حين تخلف عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك قال كعب لم أتخلف عن رسول الله ﷺ في غزوة غزاها قط إلا في غزوة تبوك غير أني تخلفت في غزوة بدر ولم يعاتب أحداً تخلف عنها انما خرج رسول الله ﷺ والمسلمون يريدون عير قريش حتى جمع الله بينهم وبين عدوهم على غير ميعاد. ولقد شهدت مع رسول الله ﷺ ليلة العقبة حين تواثقنا على الاسلام وما أحب أن لي بها مشهد بدر، وإن كانت بدر أذكر في الناس منها وأشهر، وكان من خبري حين تخلفت عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك اني لم أكن قط أقوى ولا أيسر مني حين تخلفت عنه في تلك الغزوة، والله ما جمعت قبلها راحلتين قط حتى جمعتهما في تلك الغزوة، وكان رسول الله ﷺ قلما يريد غزوة إلا ورّى بغيرها حتى كانت تلك الغزوة، فغزاها رسول الله ﷺ في حر شديد واستقبل سفراً بعيداً ومفازاً، واستقبل عدواً كثيراً، فجلى للمسلمين أمرهم ليتأهبوا أهبة غزوهم فأخبرهم بوجههم الذي يريد والمسلمون مع رسول الله ﷺ كثير لا يجمعهم كتاب حافظ — يريد الديوان

قال كعب رضي الله عنه: فقلّ رجل يريد أن يتغيب إلا ظن أن ذلك سيخفى له ما لم ينزل فيه وحي من الله عز وجل. وغزا رسول الله ﷺ تلك الغزوة حين

طابت الثمار والظلال، وانا اليها أصعر، فتجهز اليها رسول الله ﷺ والمسلمون معه، وطفقت أغدو لكي أتجهز معهم فأرجع ولا أقضي شيئاً، فأقول لنفسي أنا قادر على ذلك إن أردت، فلم يزل ذلك يتمادى بي حتى استمر بالناس الجد فأصبح رسول الله ﷺ غاديا والمسلمون معه، ولم أقض من جهازي شيئاً، وقلت الجهاز بعد يوم أو يومين ثم ألحقه، فغدوت بعد ما فصلوا لأتجهز فرجعت ولم أقض من جهازي شيئا، ثم غدوت فرجعت ولم أقض شيئاً، فلم يزل يتمادى بي حتى أسرعوا وتفارط الغزو، فهممت ان أرتحل فادركهم، وليت أني فعلت، ثم لم يقدر لي ذلك فطفقت إذا خرجت في الناس بعد خروج رسول الله ﷺ يحزنني اني لا أرى لي أسوة إلا رجلا مغموصاً عليه في النفاق، أو رجلا ممن عذر الله[1] ولم يذكرني رسول الله ﷺ حتى بلغ تبوك فقال وهو جالس في القوم بتبوك «ما فعل كعب ابن مالك؟» فقال رجل من بني سلمة: يارسول الله حبسه برداه والنظر في عطفيه. فقال له معاذ بن جبل، بئسما قلت، والله يارسول الله ما علمنا عليه إلا خيراً، فسكت رسول الله ﷺ

قال كعب بن مالك: فلما بلغني أن رسول الله ﷺ قد توجه قافلا من تبوك حضرني بثي فطفقت أتذكر الكذب وأقول بماذا أخرج من سخطه غداً وأستعين على ذلك بكل ذي رأي من أهلي، فلما قيل ان رسول الله ﷺ قد أظل قادما زاح عني الباطل حتى عرفت أني لم أنج منه بشيء أبداً، فأجمعت صدقه، وأصبح رسول الله ﷺ قادما، وكان اذا قدم من سفر بدأ بالمسجد فركع ركعتين ثم جلس للناس، فلما فعل ذلك جاءه المخلفون فطفقوا يعتذرون اليه ويحلفون له وكانوا بضعا وثمانين رجلا، فقبل رسول الله ﷺ منهم علانيتهم، وبايعهم واستغفر لهم، ووكل سرائرهم إلى الله، حتى جئت فلما سلمت عليه تبسم تبسم المغضب ثم قال لي «تعال» فجئت أمشي حتى جلست بين يديه فقال لي «ما خلفك؛ ألم تكن قد اشتريت ظهرك؟» فقلت يارسول الله، والله لو جلست عند غيرك من أهل الدنيا لرأيت اني سأخرج من سخطه بعذر، لقد أعطيت جدلا، ولكني والله لقد

(١) يعني الضعفاء والمرضى والذين لا يجدون ما ينفقون

علمت لئن حدثتك اليوم حديث كذب ترضى عني به ليوشكن الله يسخطك علي ، ولئن حدثتك بحديث صدق تجد علي فيه ، اني لأرجو فيه عقبى من الله ، والله ما كان لي عذر ، والله ما كنت قط أقوى ولا أيسر مني حين تخلفت عنك. فقال ﷺ «أما هذا فقد صدق ، فقم حتى يقضي الله فيك » فقمت وبادرني رجال من بني سلمة واتبعوني فقالوا لي والله ماعلمناك كنت أذنبت ذنباً قبل هذا ، لقد عجزت أن لاتكون اعتذرت إلى رسول الله ﷺ بما اعتذر به المتخلفون فلقد كان كافيك من ذنبك استغفار رسول الله ﷺ قال فوالله مازالوا يؤنبونني حتى أردت أن أرجع الى رسول الله ﷺ فأكذب نفسي، ثم قلت لهم هل لقي هذا معي أحد؟ قالوا نعم لقيه معك رجلان قالا ما قلت ، وقيل لهما مثل ماقيل لك فقلت من هما؟ قالوا مرارة بن الربيع وهلال بن أميـة الواقفي ، فذكروا لي رجلين صالحين قد شهدا بدرا لي فيهما أسوة ، فمضيت حين ذكروهما لي

قال ونهى رسول الله ﷺ الناس عن كلامنا أيها الثلاثة من بين من تخلف عنه فاجتنبنا الناس ـ او قال تغيروا لنا ـ حتى تنكرت لي في نفسي الارض فما هي بالارض التي كنت أعرف ، فلبثنا على ذلك خمسين ليلة ، فأما صاحباي فاستكانا وقعدا في بيوتهما. وأما أنا فكنت اشد القوم وأجلدهم ، فكنت أخرج فاشهد الصـلاة مع المسلمين وأطوف بالاسواق فلا يكلمني أحد ، وآتي رسول الله ﷺ فأسلم عليه وهو في مجلسه بعد الصلاة وأقول في نفسي هل حرك شفتيه برد السلام أم لا؟ ثم أصلي قريبا منه وأسارقه النظر ، فاذا اقبلت على صلاتي نظر إليّ فاذا التفتُّ نحوه اعرض عني، حتى اذا طال علي ذلك من هجر المسلمين مشيت حتى تسورت حائط أبي قتادة ـ وهو ابن عمي واحب الناس إلي ـ فسلمت عليه ، فوالله ماردعلي السلام . فقلت له يا ابا قتادة انشدك الله تعالى هل تعلم اني احب الله ورسوله ؟ قال فسكت ، قال فعدت فنشدته فسكت، فعدت فنشدته. قال الله ورسوله اعلم . ففاضت عيناي وتوليت حتى تسورت الجدار .

وبينا أنا امشي بسوق المدينة اذا نبطي من أنباط الشام ممن قدم بطعام يبيعه بالمدينة يقول من يدل على كعب بن مالك ؟ فطفق الناس يشيرون له إلي

حتى جاءني فدفع إلي كتابا من ملك غسان وكنت كاتبا، فقرأته فاذا فيه :

أما بعد فانه قد بلغنا أن صاحبك قد جفاك، ولم يجعلك الله بدار هوان ولا مضيعة، فالحق بنا نواسك. فقلت حين قرأتها وهذه أيضاً من البلاء، فتيممت بها التنور فسجرتها

حتى اذا مضت أربعون ليلة من الخمسين اذا برسول رسول الله ﷺ يأتيني فقال ان رسول الله ﷺ يأمرك أن تعتزل امرأتك ، فقلت : أطلقها أم ماذا أفعل ؟ قال بل اعتزلها ولا تقربنها ، وأرسل الى صاحبي مثل ذلك ، فقلت لامرأتي إلحقي باهلك فكوني عندهم حتى يقضي الله في هذا الامر ، فجاءت امرأة هلال بن أمية رسول الله ﷺ فقالت يارسول الله إن هلالا شيخ ضائع وليس له خادم فهل تكرة أن أخدمه ؟ قال « لا ولكن لايقربنك » فقالت انه والله مابه من حركة الى شيء ، ووالله مازال يبكي من لدن ان كان من أمرك ماكان الى يومه هذا ، فقال لي بعض أهلي : لو استأذنت رسول الله ﷺ في امرأتك فقد أذن لامرأة هلال أن تخدمه. فقلت والله لا استأذن فيها رسول الله ﷺ وما أدري مايقول اذا استأذنته فيها وأنا رجل شاب ،

قال فلبثنا عشر ليال فكمل لنا خمسون ليلة من حين نهى عن كلامنا ، قال ثم صليت الفجر صباح خمسين ليلة على ظهر بيت من بيوتنا ، فبينا أنا جالس على الحال التي ذكر الله منا قد ضاقت علي نفسي وضاقت علي الارض بما رحبت سمعت صارخا أوفى على جبل سلع يقول بأعلى صوته يا كعب بن مالك ابشر ، فخررت ساجدا وعرفت أن قد جاء الفرج، فآذن رسول الله ﷺ بتوبة الله علينا حين صلى الفجر . فذهب الناس يبشروننا وذهب قبل صاحبي مبشرون، وركض إلي رجل فرسا وسعى ساع من اسلم قبلي وأوفى على الجبل فكان الصوت اسرع من الفرس ، فلما جاء الذي سمعت صوته يبشرني نزعت له ثوبي فكسوتهما إياه ببشارته، والله ماأملك غيرهما يومئذ ؟ فاستعرت ثوبين فلبستهما فانطلقت أؤم رسول الله ﷺ يتلقاني الناس فوجا بعد فوج يهنئوني بالتوبة ويقولون ليهنك توبة الله عليك. حتى دخلت المسجد فاذا رسول الله ﷺ جالس في المسجد وحوله الناس ، فقام

إلي طلحة بن عبيد يهرول حتى صافحني وهنأني، والله ماقام إلي رجل من المهاجرين غيره، قال فكان كعب رضي الله عنه لاينساها لطلحة.

قال كعب رضي الله عنه: فلما سلمت على رسول الله ﷺ قال وهو يبرق وجهه من السرور «ابشر بخير يوم مر عليك منذ ولدتك أمك» قلت أمن عندك يارسول الله أم من عند الله؟ قال «لا بل من عند الله» وكان رسول الله ﷺ اذا سر استنار وجهه حتى كأنه قطعة قمر، وكنا نعرف ذلك منه، فلما جلست بين يديه قلت يارسول الله ان من توبتي أن انخلع من مالي صدقة إلى الله وإلى رسوله ﷺ قال «أمسك عليك بعض مالك فهو خير لك» فقلت اني أمسك سهمي الذي بخيبر، وقلت يارسول الله انما أنجاني الله بالصدق، وان من توبتي أن لا أحدث إلا صدقا مابقيت، قال فوالله ماأعلم أحداً من المسلمين أبلاه الله من الصدق في الحديث منذ ذكرت ذلك لرسول الله ﷺ أحسن مما أبلاني الله تعالى، والله ماتعمدت كذبة منذ قلت ذلك لرسول الله ﷺ الى يومي هذا كذبا واني لارجو أن يحفظني الله فيما بقي، وأنزل الله (لقد تاب الله على النبي والمهاجرين والانصار — الى قوله — وكونوا مع الصادقين)

قال كعب فوالله ماأنعم الله علي من نعمة قط بعد أن هداني الله للاسلام أعظم في نفسي من صدقي رسول الله ﷺ يومئذ أن لا أكون كذبته فأهلك كما هلك الذين كذبوه، فان الله قال للذين كذبوه حين أنزل الوحي شر ماقال لاحد فقال (سيحلفون بالله لكم إذا انقلبتم اليهم لتعرضوا عنهم فأعرضوا عنهم انهم رجس — إلى قوله — الفاسقين)

قال كعب وكنا خلفنا أيها الثلاثة عن أمر اولئك الذين قبل منهم رسول الله ﷺ حين حلفوا فبايعهم واستغفر لهم، وأرجأ رسول الله ﷺ أمرنا حتى قضى الله فيه فلذلك قال الله (وعلى الثلاثة الذين خلفوا) وليس الذي ذكر مما خلفنا تخلفنا عن الغزو وانما هو تخليفه إيانا وارجاؤه أمرنا عمن حلف له واعتذر اليه فقبل منه اهـ

(أقول) ان في هذه القصة لأكبر عبرة تفيض لها عبرات المؤمنين، وتخشع لها قلوب المتقين، وكان الامام احمد لايبكيه شيء من القرآن كما تبكيه هذه الآيات وحديث كعب في تفصيل خبرهم فيها. وأي مؤمن يملك عينيه أن تفيض من الدمع، وقلبه

أن يجف ويرجف من الخوف اذا قرأ أو سمع هذا الخبر ، وتأمل ما فيه من العبر ، التي لا يمكن بسطها إلا في كتاب مستقل ، ولا ادري ماعسى أن ينال من قسوة قلوب المقلدين ، وجهل المغرورين ، الذين يقترفون الفواحش والمنكرات ، ويتركون الفرائض والواجبات ، ويصرون على مافعلوا وهم يعلمون . فلا يتوبون ولا هم يذكرون ، وإذا وعظهم واعظ أو ذكرهم مذكر ، وجد اللابسين لباس الاسلام منهم بين جازم بالمغفرة والعفو عنه ، وبين متكل على شفاعة الشافعين له ، ومنهم من يحفظ من أخبار المكفرات للذنوب ما لا يصح له سند ، ولا يستقيم له على أصول الدين متن ، وما له أصل من هذه الاخبار يراد به تكفير الصغائر ، بشرط اجتناب الكبائر ، لقوله تعالى (إن تجتنبوا كبائر ماتنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم وما كان العمل الصالح فيه مقرونا بالتوبة أخذاً من قوله تعالى (١٦ : ١١٩ ثم ان ربك للذين عملوا السوء بجهالة ثم تابوا من بعد ذلك وأصلحوا . ان ربك من بعدها لغفور رحيم) وتقدم بيان هذه المسألة في مواضع (آخرها ص ١٧٥ ج ١٠)

﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله ﴾ باتباع ما أمر به بقدر الاستطاعة ، وترك مانهى عنه وبين تحريمه مطلقا ﴿ وكونوا مع الصادقين ﴾ أي مع جماعة الصادقين او منهم (وفاقا لقراءة ابن مسعود وقد تكون تفسيراً) دون المنافقين الذين يتنصلون من ذنوبهم بالكذب ويؤيدونه بالحلف . والصادقون هم المتصفون بالصدق والاخلاص في جهادهم إذا جاهدوا ، وفي عهودهم إذا عاهدوا ، وفي أقوالهم ووعودهم إذا حدثوا ووعدوا ، وفي توبتهم إذا أذنبوا اوقصروا والمنافقون ضدهم في ذلك وغيره

تقدم في آخر حديث كعب بن مالك المتفق عليه ان هذه الآية نزلت فيه وفي أصحابه بما صدقوا رسول الله ﷺ ولم ينتحلوا لأنفسهم عذراً كاذبا في التخلف عن النفر معه . وبه قال نافع والسدي . وقال عبد الله بن عمر [رض] (وكونوا مع الصادقين) مع محمد ﷺ وأصحابه . وقال سعيد بن جبير والضحاك : مع أبي بكر وعمر - وابن عباس وأبو جعفر : مع علي . والحق انها عامة كما قال ابن عمر في عهده ، ومثله

يقال في الصادقين من بعده ، وان الثلاثة الذين نزلت في قصتهم يدخلون في عمومها دخولا أولياً . وان أبا بكر وعمر وعلياً أفضل من هؤلاء الثلاثة وأعرق في الصدق وأكمل . ولكني أشم من الروايتين رائحة وضع النواصب والروافض ، وقيل ان المراد بالصادقين المهاجرون وان أبا بكر احتج بالآية على الانصار يوم السقيفة. وهذا القول لا وجه له والاحتجاج به لا يصح ، ووجهه القائلون به بانه جعل الصادقين هنا هم الصادقين في آية سورة الحشر (٨٩ : ٩ للفقراء المهاجرين — الى قوله — اولئك هم الصادقون) ومقتضاه أن يكون هذا الوصف خاصا بالمهاجرين حيث وجد في القرآن معرفا كآية (٤٩ : ١٥ إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله — إلى قوله — اولئك هم الصادقون) وقوله (ليسأل الصادقين — ليجزي الله الصادقين) وغيرهن — وهو باطل ولم يقل به أحد ، ومع هذا لا يدل على وجوب اتباع الانصار وغيرهم لهم في الامامة كما قال الطوفي

أخرج سعيد بن منصور وابن أبي شيبة وأشهر رواة التفسير والبيهقي في الشعب عن عبدالله بن مسعود (رض) لا يصلح الكذاب في جد ولا هزل ، ولا يعد أحدكم صبيه شيئا ثم لا ينجزه ، اقرؤا إن شئتم (يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين) فهل تجدون لأحد رخصة في الكذب ؟ وأخرجه عنه الحاكم وصححه ، والبيهقي مرفوعا الى النبي ﷺ بلفظ « ان الكذب لا يصلح منه جد ولا هزل ، ولا يعد الرجل ابنه ثم لا ينجز له ، أن الصدق يهدي الى البر ، وان البر يهدي الى الجنة ، وان الكذب يهدي إلى الفجور ، وان الفجور يهدي الى النار ، انه يقال للصادق : صدق وبر ، ويقال للكاذب : كذب وفجر . وان الرجل ليصدق حتى يكتب عند الله صديقا ، ويكذب حتى يكتب عند الله كذابا » وأخرج البخاري ومسلم وغيرهما عنه قال قال رسول الله ﷺ « عليكم بالصدق فان الصدق يهدي إلى البر وان الرجل ليصدق — الخ ما تقدم آنفا — وإياكم والكذب فان الكذب يهدي الى الفجور ، وان الرجل ليكذب » — الخ ما تقدم فيما قبله — والاحاديث في فضيلة الصدق ورذيلة الكذب وكونها من صفات المنافقين كثيرة تقدم بعضها ، وفي روايات عديدة « ان المؤمن قد يطبع على كل

خلق إلا الكذب والخيانة» وانه لا رخصة في الكذب إلا لضرورة من خديعة حرب او اصلاح بين اثنين او رجل يحدث امرأته ليرضيها — يعني في مثل التحبب اليها بوصف محاسنها ورضاه عنها، لا في مصالح الدار والعيال وغيرها ، والرواية في هذا على علاتها تفيد بحديث « ان في المعاريض لمندوحة عن الكذب ـ وفي رواية ـ ما يغني الرجل العاقل عن الكذب » روى ابن عدي الاول عن عمران ابن حصين والثاني عن علي رضي الله عنهما

---

(١٢٠) مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ ٱللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ ، ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ ، إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ *

(١٢١) وَلَا يُنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ

هاتان الآيتان في تأكيد وجوب الغزو مع رسول الله ﷺ وما فيه من الأجر العظيم، وحظر تخلف أحد عنه إلا باذنه، بما فيه من تفضيل أنفسهم على نفسه

﴿ ماكان لاهل المدينة ﴾ ما كان بالذي يصح لأهل المدينة عاصمة الاسلام ومقر الرسول ﷺ ولا بالذي يستقيم او يحل لهم ﴿ ومن حولهم من الاعراب ﴾ كمزينة وجهينة وأشجع وأسلم وغفار ﴿ أن يتخلفوا عن رسول الله ﴾ إذا خرج غازيا في سبيل الله كما فعل بعضهم في غزوة تبوك ولا في غير هذا من أمور الملة ومصالح الامة

﴿ ولا يرغبوا بأنفسهم عن نفسه ﴾ أي ولا ان يفضلوا أنفسهم على نفسه فيصونوها ويرغبوا بايثار راحتها وسلامتها عن بذلها فيما يبذل فيه نفسه الشريفة القدسية

من احتمال الجهد والمشقة في سبيل الله عز وجل . يقال رغب في الشيء إذا أحبه وآثره ، ورغب عنه إذا كرهه وأعرض عنه ، وقد جمع هنا بينهما بهذه العبارة المؤثرة الدالة على أن المتخلف يفضل نفسه ويؤثرها على نفس رسول الله ﷺ التي لا يكمل ايمان أحد حتى يحبه أكثر من حبه لنفسه ، وهذا يصح بعده ﷺ في كل راغب عن سنته والتأسي به ، كالملاحدة الذين يقولون لا يجب اتباعه بعد موته ، والمبتدعة والمقلدة الذين يؤثرون بدعهم ومذاهبهم على سنته

قال الزمخشري - ونعم ماقال : أمروا أن يصحبوه على البأساء والضراء ، وأن يكابدوا معه الاهوال برغبة ونشاط واغتباط ، وان يلقّوا أنفسهم من الشدائد ماتلقاه نفسه ، علما بأنها أعز نفس على الله وأكرمها . فاذا تعرضت مع كرامتها وعزتها للخوض في شدة وهول وجب على سائر الانفس أن تتهافت فيما تعرضت له ولا يكترث لها أصحابها ولا يقيمون لها وزنا ، وتكون أخف شيء عليهم وأهونه ، فضلا عن أن يربؤا بأنفسهم عن متابعتها ومصاحبتها ، ويضنوا بها على ما سمح بنفسه عليه . وهذا نهي بليغ مع تقبيح لامرهم ، وتوبيخ لهم عليه ، وتهييج لمتابعته بأنفة وحمية اه

﴿ ذلك بأنهم لا يصيبهم ظمأ ولا نصب ولا مخمصة في سبيل الله ﴾ أي ذلك الذي دل عليه النفي من النهي عن التخلف عنه ، ووجوب الاتباع له ، بسبب أن كل ما يصيبهم في جهادهم من أذى وان قل ، ومن إيذاء للعدو وان صغر ، فهو عمل صالح لهم به اكبر الاجر ، فلا يصيبهم ظمأ لقلة الماء - أو نصب لبعد الشقة أو قلة الظهر - أو مجاعة لقلة الزاد - في سبيل إعلاء كلمة الله وإعزاز دينه ﴿ ولا يطأون موطئاً يغيظ الكفار ﴾ وطؤهم إياه لانه من دارهم ، ويعدون وطأه اعتداء عليهم واستهانة بقوتهم ، فيغيظهم أن تمسه اقدام المؤمنين او حوافر خيولهم وأخفاف رواحلهم ، فكيف إذا يسر الله فتحه لهم

﴿ ولا ينالون من عدو نيلا ﴾ أي ولا يبلغون من أي عدو من أعداء الله ورسوله شيئا مما أرادوا من جرح أو قتل او أسر او هزيمة او غنيمة ﴿ إلا كتب لهم به عمل صالح ﴾ أي كتب لهم بكل واحد مما ذكر عمل صالح مرضي لله تعالى مجزي عليه بالثواب العظيم ، فما اكثر هذه الاعمال الصالحات التي تعم الامور العارضة كالجوع

والعطش ، وتشمل كل حركة من بطشة يد أو وطئة قدم ؟ ﴿ ان الله لا يضيع أجر المحسنين ﴾ هذا تعليل لهذا الاجر العظيم يدل على عموم الحكم ، وإن كان من المعلوم بالضرورة ان هذا الجهاد مع رسول الله ﷺ أعظم اجراً ، و أنفس ذخرا ، قال قتادة : ان حكم الآية خاص به ﷺ وبمن جاهد معه ، وقال الاوزاعي وعبد الله بن المبارك وغيرهما من علماء التابعين : هذه الآية للمسلمين الى ان تقوم الساعة. وهذا القول اصح ، على مالا يخفى من التفاوت في الاجر ، فالجهاد في سبيل الله إحسان ، و (هل جزاء الاحسان إلا الاحسان) ؟ في كل زمان ومكان

﴿ ولا ينفقون نفقة صغيرة ولا كبيرة ولا يقطعون واديا إلا كتب لهم ﴾ أي كذلك شأنهم فيما ينفقون في سبيل الله صغر أم كبر ، قل أم كثر ، وفي كل واد يقطعونه في سيرهم غادين أو رائحين (وهو مسيل الماء في منفرجات الجبال وأغوار الآكام ، خصه بالذكر لما فيه من المشقة) لا يترك شيء منه أو ينسى بل يكتب لهم

﴿ ليجزيهم الله ﴾ بكتابته في صحف أعمالهم ﴿ احسن ما كانوا يعملون ﴾ وهو الجهاد ، فانه عند وجوبه وفرضيته بالاستنفار له يكون أحسن الاعمال ، إذ يتوقف عليه حفظ الايمان ، وملك الاسلام ، وجميع ما يتبعهما من فضائل الاعمال ، يقال جزاه العمل وجزاه به. كما قال (ثم يجزاه الجزاء الأوفى) والنص على جزائهم احسن ما كانوا يعملون لا ينافي جزاءهم بما دونه وقد قال آنفا (ان الله لا يضيع أجر المحسنين) وهو فيه ، وانما المراد النص على أن هذا العمل أحسن أعمالهم أو من أحسنها لانه جمع بين الجهاد بالمال والجهاد بالنفس وما قبله من الثاني فقط ، والجزاء على الاحسن يكون أحسن منه على قاعدة (من جاء بالحسنة فله خير منها) وبيان ذلك بقاعدة (من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها) وقال بعضهم إن معنى الجملة أنه تعالى يجزيهم بكل عمل مما ذكر احسن جزاء على أعمالهم الحسنة ، اي في غير الجهاد بالمال والنفس ، بأن تكون النفقة الصغيرة فيه كالنفقة الكبيرة في غيره من المبرات ، والمشقة القليلة فيه كالمشقة الكثيرة فيما عداه من الاعمال الصالحات .

(١٢٢) وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَآفَّةً ، فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ

هذه الآية من تتمة أحكام الجهاد بالقتال، مع زيادة حكم طلب العلم والتفقه في الدين وهو آلة الجهاد بالحجة والبرهان، الذي عليه مدار الدعوة الى الايمان، وإقامة دعائم الاسلام، وانما جهاد السيف حماية وسياج . وسببها أن ما ورد في فضل الجهاد وثوابه وفي ذم القاعدين عنه وكونه من شأن المنافقين دون المؤمنين الصادقين ، قوى رغبة المؤمنين فيه حتى كانوا إذا أراد الرسول ﷺ ارسال سرية للقاء بعض المشركين وان قلوا ينتدب لها جميع المؤمنين ويتسابقون إلى الخروج فيها، ويدعون الرسول ﷺ وحده أو مع نفر قليل كما ورد، وانما يجب هذا في النفير العام اذا وجد سببه بقدر الحاجة لا في كل استنفار لمقاومة الكفار ، على ان النفر العام قد يتعذر او تكثر فيه الاعذار ، وقيل انه لم يكن واجبا على عمومه إلا في عهده ﷺ او على الانصار بمقتضى مبايعتهم له (راجع ص ٣٠٨ ج ١٠)

﴿ وما كان المؤمنون لينفروا كافة ﴾ أي ما كان شأن المؤمنين ولا مما يجب عليهم ويطلب منهم ، أن ينفروا جميعاً في كل سرية تخرج للجهاد، فان هذه السرايا من فروض الكفاية لا من فروض الاعيان ، وإنما يجب ذلك إذا خرج الرسول واستنفرهم للخروج ﴿ فلولا نفر من كل فرقة ﴾ لولا حرف تحضيض وحث على ما تدخل عليه ، أى فهلا نفر للقتال من كل فرقة كبيرة ﴿ منهم ﴾ كالقبيلة او أهل المدينة ﴿ طائفة ﴾ أي جماعة بقدر الحاجة ﴿ ليتفقهوا في الدين ﴾ أي ليتأتى لهم أي المؤمنين في جملتهم التفقه في الدين بأن يتكلف الباقون في المدينة الفقاهة في الدين بما يتجدد نزوله على الرسول ﷺ من الآيات، وما يجري عليه ﷺ

من بيانها بالقول والعمل، فيعرف الحكم مع حكمته ، ويفصل العلم المجمل بالعمل به»

﴿ ولينذروا قومهم ﴾ الذين نفروا للقاء العدو ﴿ اذا رجعوا اليهم ﴾ أي يجعلوا جل همهم من الفقاهة بأنفسهم ارشاد هؤلاء وتعليمهم ما علموا ، وانذارهم عاقبة الجهل، وترك العمل بالعلم ﴿ لعلهم يحذرون ﴾ أي رجاء أن يخافوا الله ويحذروا عاقبة عصيانه . ويكون جميع المؤمنين علماء بدينهم قادرين على نشر دعوته ،وإقامة حجته ، وتعميم هدايته ، فهذا ما يجب أن يكون غاية العلم والتفقه في الدين والغرض منه ، لا الرياسة والعلو بالمناصب ،والتكبر على الناس وطلب المنافع الشخصية منهم

والآية تدل على وجوب تعميم العلم والتفقه في الدين والاستعداد لتعليمه في مواطن الاقامة وتفقيه الناس فيه على الوجه الذي يصلح به حالهم ، ويكونون به هداة لغيرهم ، وان المتخصصين لهذا التفقه بهذه النية ، لا يقلون في الدرجة عند الله عن المجاهدين بالمال والنفس لاعلاء كلمة الله والدفاع عن الملة والامة . بل هم أفضل منهم في غير الحال التي يكون فيها الدفاع فرضا عينيا والدلائل على هذا كثيرة ، وما قاله بعض الأصوليين من دلالة الآية على الاحتجاج بخبر الواحد متكلف بعيد عن معنى النظم الكريم ، ومبني على أن لفظ طائفة يطلق على الواحد كما قيل وهو باطل

كنت أطلب العلم في طرابلس وكان حاكمها الاداري (المتصرف) فيها مصطفى باشا بابان من سروات الكرد ، وكان من اهل العلم والفقه في مذهب الشافعية ، وقد قال لي مرة في دارنا بالقلمون : لماذا تستثني الدولة العلماء وطلاب العلوم الدينية من خدمة العسكرية وهي واجبة شرعا وهم أولى الناس بالقيام بهذا الواجب ؟ ـ يعرض بي ـ أليس هذا خطأ لا أصل له في الشرع ؟ فقلت له على البداهة بل لهذا أصل في نص القرآن الكريم وتلوت الآية ، فاستكثر الجواب على مبتدىء مثلي لم يقرأ التفسير وأثنى ودعا . وقد تعارضت الروايات المأثورة في هذه الآية فاختلفت الاقوال في تفسيرها والحق فيها ما قلنا وعليه الجمهور

أخرج أبو داود في ناسخه ، وابن ابي حاتم وابن مردويه عن ابن عباس (رض) قال نسخ هؤلاء الآيات (انفروا خفافا وثقالا ـ وإلا تنفروا

يعذبكم عذاباً أليما) قوله (وما كان المؤمنون لينفروا كافة) يقول لتنفر طائفة ولتمكث طائفة مع رسول الله ﷺ فالماكثون مع رسول الله ﷺ هم الذين يتفقهون في الدين وينذرون اخوانهم اذا رجعوا اليهم من الغزو لعلهم يحذرون مانزل من بعدهم من قضاء الله في كتابه وحدوده .

واخرج ابن المنذر وابن ابي حاتم وابن مردويه والبيهقي في المدخل عنه في الآية : يعني ما كان المؤمنون لينفروا جميعاً ويتركوا النبي ﷺ وحده فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة يعني عصبة يعني السرايا فلا يسيرون الا باذنه. فاذا رجعت السرايا وقد نزل قرآن تعلمه القاعدون من النبي ﷺ قالوا ان الله انزل على نبيكم بعدكم قرآناً وقد تعلمناه فتمكث السرايا يتعلمون ما أنزل الله على نبيهم ﷺ بعدهم ، ويبعث سرايا أخر ، فذلك قوله (ليتفقهوا في الدين) يقول يتعلمون ما أنزل الله على نبيهم ويعلمونه السرايا إذا رجعت اليهم (لعلهم يحذرون)

فاما قوله في الرواية الأولى بان هذه الآية نسخت آيات النفير العام فهو قد يوافق إطلاق السلف في النسخ ومنه عندهم تخصيص العام وتقييد المطلق ، ولا يصح هنا النسخ المصطلح عليه في اصول الفقه، لان موضع النفر الخاص غير موضع النفير العام، فلا تنافي بين الاحكام . وبهذا يقول جمهور العلماء

وأخرج ابن جرير عن الحسن البصري انه جعل الضمير في قوله تعالى (ليتفقهوا في الدين) للطائفة التي تنفر للغزو لا للتي تبقى مع النبي ﷺ في المدينة وذلك قوله : ليتفقه الذين خرجوا بما يريهم الله من الظهور على المشركين والنصرة وينذروا قومهم اذا رجعوا اليهم . وزعم الطبري ان هذا القول أولى بالصواب ، واوضح ذلك بأن هذه الطائفة النافرة تتفقه بما تعاين من نصر الله اهل دينه وأصحاب رسوله على أهل عداوته والكفر به فيفقه بذلك من معاينة حقيقة علم أمر الاسلام وظهوره على الاديان من لم يكن فقهه (ولينذروا قومهم) فيحذروهم أن ينزل بهم من بأس الله مثل الذي نزل بمن شاهدوا ممن ظفر بهم المسلمون من اهل الشرك (إذا) هم (رجعوا اليهم) من غزوهم (لعلهم يحذرون) يقول لعل قومهم إذا هم حذروهم ما عاينوا من ذلك يحذرون فيؤمنون بالله ورسوله حذراً ان ينزل بهم ما نزل

بالذين أخبروهم خبرهم اه وهذا تاويل متكلف ينبو عنه النظم الكريم فان اعتبار طائفة السرية بما قد يحصل لها من النصر - وهو غير مضمون ولا مطرد - لا يسمى تفقها في الدين وإن كان يدخل في عموم معنى الفقه ، فان التفقه هو التعلم الذي يكون بالتكلف والتدرج والمتبادر من الدين علمه . ولا يصح هذا المعنى في ذلك العهد إلا في الذين يبقون مع النبي ﷺ فيزدادون كل يوم علما وفقها بنزول القرآن كما تقدم آنفا في تفسير (وأجدر أن لا يعلموا حدود ما انزل الله) وما يأتي قريبا فيما ينزل من السور فيزداد به الذين آمنوا إيمانا . واخذ بعضهم من قول الحسن أنه يشمل السفر لاجل طلب العلم لما في الرحلة من اسباب زيادة الاستفادة بالانقطاع للعلم ولقاء اساطينه ، وعلل بعضهم فضيلة السياحة بذلك كما تقدم قريبا

وقد بينا معنى الفقه في عرف اللغة واستعمال القرآن ، وانه اخص من العلم بفروع الاحكام ، وحققناه بشواهد الآيات في تفسير (٧ : ١٧٩ لهم قلوب لا يفقهون بها) — (صفحة ٤٢٠ ج ٩ تفسير)

(١٢٣) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ

اعلم أن هذه الآية قاعدة من قواعد القتال الذي نزلت أهم قواعده وأحكامه في هذه السورة والتي قبلها ، وانما وضعت ههنا على سنة القرآن في تفريق الموضوع الواحد الكثير الاحكام في مواضع متفرقة وبينا حكمته آنفا عوداً على بدء

﴿ يا أيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار ﴾ اي الذين يدنون منكم وتتصل بلادهم ببلادكم ، وذلك أن القتال شرع لتأمين الدعوة إلى الاسلام وحرية الدين والدفاع عن أهله ، وقد كانت الدعوة موجهة الى الاقرب فالاقرب من الكفار كما قال تعالى لرسوله (لتنذر ام القرى ومن حولها) وقال لاهل مكة (واوحي هذا القرآن لانذركم به ومن بلغ) اي وكل من بلغته دعوته . بل أمره أن يخص

الاقرب اليه في النسب من اهل بلده ام القرى فقال (وانذر عشيرتك الاقربين)

أخرج ابن أبي حاتم عن ابن زيد في الآية قال : كان الذين يلونه من الكفار العرب فقاتلهم حتى فرغ منهم - وعن قتادة قال : الادنى فالادنى - وأخرج ابن مردويه عن ابن عمر انه سئل عن غزو الديلم فقال سمعت رسول الله ﷺ يقول (قاتلوا الذين يلونكم من الكفار) قال « الروم » اه يعني ان الروم هم المراد بالكفار في الآية لانهم كانوا عند نزولها في هذه السورة بعد الفراغ من أمر يهود المدينة وخيبر هم الذين يلونهم في تبوك وسائر بلاد الشام

وترجيح البدء بالاقرب فالاقرب معقول من وجوه كثيرة كالحاجة والامكان والسهولة والنفقة ، ولذلك كانت القاعدة فيه عامة في الدعوة والقتال والنفقات والصدقات ، وكذا ما يدار في المجلس من شراب ونحوه فكان ﷺ يعطي من على يمينه وإن لم يكن افضل الجالسين ثم الذي يليه فالذي يليه ، وأمر بان يأكل الانسان مما يليه . وانما تطرد القاعدة في الحالة العادية . وأما ما يعرض من ضرورة في كل ذلك فله حكمه فاحكام الضرورات مستثناة في الواجبات والمحرمات والآداب .

﴿ وليجدوا فيكم غلظة ﴾ أي وليجدوا فيكم شدة وخشونة في القتال ومتعلقاته كما تقدم في تفسير آية (٧٣ يا ايها النبي جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم) (ص ٥٤٩ ج ١٠) والغلظة على المقاتلين في زمن الحرب من مقتضيات الطبيعة والمصلحة وتنكيرها في الآية يدل على ان لأولي الامر أن يحددوها في كل زمن وكل حال بما يتفق مع المصلحة ، وانما أمروا بها على كونها طبيعية لتقييد ما أمروا به في الاحوال العامة من الرفق والعدل والبر في معاملة الكفار حتى صار ذلك من أخلاق الاسلام. وامر القتال مبني على الشدة والغلظة في كل الامم وقد حرم فظائعها الاسلام كما تقدم في تفسير سورة الانفال. وقد بلغت فظائعها عند الافرنج في هذا العصر ما يخشى ان يفضي الى تدمير العمران كله ﴿ واعلموا ان الله مع المتقين ﴾ له في مراعاة أحكامه وسننه بالمعونة والنصر ، وأهمها ما يجب اتقاؤه في الحرب ، من التقصير في أسباب النصر والغلب ، التي بينها في كتابه ، والتي تعرف بالعلم والتجارب ، كاعداد ما يستطاع من قوة ، والصبر والثبات ، والطاعة والنظام ،

وترك التنازع والاختلاف ، وكثرة ذكر الله ، والتوكل عليه فيما وراء الاسباب . وقد بينا حقيقة معنى التقوى وانواعها واختلاف المراد منها باختلاف مواضعها في تفسير (٨ : ٢٩ ص ٦٤٨ ج ٩)

---

(١٢٤) وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ ، فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا ؟ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ (١٢٥) وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ (١٢٦) أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ (١٢٧) وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ نَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ : هَلْ يَرَاكُمْ مِنْ أَحَدٍ ؟ ثُمَّ انْصَرَفُوا ، صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ

هذه الآيات الاربع آخر ما نزل في المنافقين ، وتأثير نزول القرآن فيهم وفي المؤمنين ، ومن قام الدليل على اليأس من ايمانهم ، واخبار الله بموتهم على كفرهم

﴿ واذا ما أنزلت سورة ﴾ كلمة «ما» بعد «اذا» تفيد التأكيد لمضمون شرطها ، يعني واذا تحقق انزال الله تعالى على رسوله سورة من القرآن ﴿ فمنهم من يقول أيكم زادته هذه إيمانا ﴾ أي فمن المنافقين من يتساءل مع اخوانه للاختبار ، او مع من يلقاه من المسلمين كافة للتشكيك ، قائلا أيكم زادته هذه السورة إيمانا ؟ أي يقيناً بحقية القرآن والاسلام ، وصدق الرسول ﷺ فان في كل سورة من القرآن آيات على صدقه ﷺ بما فيها من ضروب الاعجاز العامة الدالة على انها من عند الله تعالى ، وكون محمد ﷺ لا يستطيع ان يأتي بمثلها من تلقاء نفسه ، فالسؤال عن الايمان باصل الاسلام وصدق الرسول (ص) في تبليغه عن الله عز وجل . وهو التصديق الجازم المقترن باذعان النفس وخضوع الوجدان الذي يستلزم العمل ،

لا مجرد اعتقاد صدق الخبر ، الذي يقابله اعتقاد كذبه، فان أشد الناس كفراً اولئك المصدقون الجاحدون الذين قال الله لرسوله فيهم (فانهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون) ومثله قوله (وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلوا) ولا شك ان الايمان بمعناه الذي قلناه يزيد بنزول القرآن في عهد الرسول وناهيك بمن يحضر نزوله عليه ويسمعه منه ، وكذا يزيد بتلاوته وبسماعه من غيره أيضاً ثباتا في قلب المؤمن وقوة اذعان ، وصدق وجدان ، ورغبة في العمل والقرب من الله . قال الله تعالى في جواب هذا السؤال وهو العليم الخبير ﴿ فاما الذين آمنوا فزادتهم ايمانا ﴾ فاثبت تعالى للمؤمن زيادة الايمان بزيادة نزول القرآن وهو يشمل الزيادة في حقيقته وصفته من اليقين والاذعان واطمئنان القلب، وفي متعلقه وهو ما في السورة من مسائل العلم ، وفي أثره من العمل والتقرب إلى الرب . وانما يتساءل المنافقون عن الاول وهو الذي يفقدونه، وإنما غيره تابع له. ﴿ وهم يستبشرون ﴾ أي والحال انهم يسرون بنزولها وتستدعي زيادة الايمان في قلوبهم البشرى والارتياح بما يرجون من خير هذه الزيادة بتزكية أنفسهم ، وأثر ذلك في أعمالهم في الدنيا والآخرة ﴿ وأما الذين في قلوبهم مرض ﴾ اي شك وارتياب، يدعو إلى النفاق باسرار الكفر واظهار الاسلام ﴿ فزادتهم رجساً إلى رجسهم ﴾ اي كفراً ونفاقا مضموما إلى كفرهم ونفاقهم السابق الذي هو اقذر الرجس النفسي وشر انواعه ﴿ وماتوا وهم كافرون ﴾ اي واستحوذ ذلك عليهم ورسخ فيهم، فكان مقتضى سنة الله تعالى في تأثير الاعمال في صفات النفس ان من مات منهم مات على كفره ، وسيموت من بقي منهم وهم متلبسون بالكفر . وهاك الدليل على ذلك :

﴿ أو لا يرون انهم يفتنون في كل عام مرة أو مرتين ﴾ الاستفهام لتقرير مضمون الحكم عليهم والحجة عليه وهو داخل على فعل محذوف للعلم به من المقام، والمعنى أيجهلون هذا ويغفلون عن حالهم فيما يعرض لهم عاما بعد عام من تكرار الفتون والاختبار، الذي يظهر به استعداد الانفس للايمان او الكفر ، والتمييز بين الحق والباطل ،

كالآيات الدالة على صدق الرسول ﷺ في كل ما اخبر به من نصر الله له ولمن اتبعه، وخذلان اعدائه من الكفار والمنافقين ووقوع ما انذرهم، ومن إنباء الله رسوله بما في قلوبهم، وفضيحتهم بما يسرون من اعمالهم، كما فصل في هذه السورة وذكر بعضه في غيرها — وقرأ حمزة ويعقوب (او لا ترون) على ان الخطاب للمؤمنين الذين قد يروعهم الخبر المؤكد وقوعه بموتهم على كفرهم، كأنه يقول أتعجبون من الحكم عليهم بهذه العاقبة السوءى ولا ترون الدلائل الدالة عليها من فتنتهم وابتلائهم المرة بعد المرة سنة بعد سنة، بما من شأنه ان يذهب بشكهم ويشفي مرض قلوبهم، من آيات الله فيهم وفي غيرهم ﴿ثم لا يتوبون ولا هم يذكرون﴾ أي ثم تمر الاعوام على ذلك ولا يتوبون من نفاقهم، ولا يتعظون بما حل بهم مما أنذرهم الله تعالى به، وهل بعد هذا من برهان على انطفاء نور الفطرة والاستعداد للايمان أقوى من هذا؟ ان كان وراءه برهان أقوى منه فهو أنهم يفرون من العلاج الذي من شأنه أن يشفيهم من مرض قلوبهم وهو ما أكد به ما قبله بقوله:

﴿واذا ما انزلت سورة نظر بعضهم الى بعض﴾ هذا بيان لحال المنافقين الذين كانوا يكونون في مجلس الرسول (ص) عند نزول سورة وما يكون من فعلهم وقولهم عند تلاوته لها، وما قبلها في بيان حالهم اذا بلغهم نزول سورة من حيث البحث عن تأثيرها، وقد يقال ان الاولى تشمل من سمع منه ومن بلغ عنه، والعبرة بموضوعها، لا بطريقة العلم بها، وان هذه أدل على رسوخهم في الكفر وعدم الطمع في رجوعهم عنه، باثباتها انهم يكرهون سماع القرآن من الرسول ﷺ وهو اشد تأثيراً من سماعه من غيره في الهداية، ولذلك كان المشركون يمنعونه من تلاوته على الناس لئلا يهتدوا بسماعه منه، فان لم يتمكنوا من اسكانه اعرضوا عن سماعه ولغوا فيه. ومنعوا صاحبه الصديق أيضا من الصلاة في المسجد الحرام ثم من مسجده الخاص لما رأوا النساء والصبيان يجتمعون لسماع القرآن منه ويتأثرون بخشوعه فيه: يقول: واذا انزلت سورة وهم في المجلس تسارقوا النظر، وتغامزوا بالعيون، على حين تخشع ابصار المؤمنين، وتنحني رءوسهم، وتجب

قلوبهم، وترامقوا بالعيون يتشاورون في الانسلال من المجلس خفية لئلا يفتضحوا بما يظهر عليهم من الانكار والسخرية بالوحي، قائلا بعضهم لبعض بالاشارة او العبارة : ﴿ هل يراكم من احد ﴾ أي من الرسول والمؤمنين اذا نحن انصرفنا كارهين لسماعها ﴿ ثم انصرفوا ﴾ يتسللون لواذاً الى مجامعهم الخاصة بهم ، والتعبير بثم لبيان تراخي فعلهم عن وقت قولهم ، الى سنوح فرصة الغفلة عنهم ولو افرادا ، فكلما لمح احد منهم غفلة من المؤمنين عنه انصرف ﴿ صرف الله قلوبهم ﴾ هذه الجملة تحتمل الدعاء والخبر ومضمونهما النهائي في كلام الله واحد كما تقدم نظيره قريبا . والمعنى صرف الله قلوبهم عن صدق الايمان، والاهتداء بآيات الله في القرآن، المرشدة الى آياته في الاكوان ﴿ بانهم قوم لا يفقهون ﴾ اي بسبب انهم قوم فقدوا صفة الفقاهة الفطرية وفهم الحقائق وما يترتب عليها من الاعمال، لعدم استعمال عقولهم فيها، فهم لا يفقهون ما يسمعون من هذه الآيات لعدم تدبرها، والاعراض عن النظر والتأمل في معانيها ، وموافقتها للعقل ، وهدايتها الى الحق والعدل، ذلك بانهم اتخذوا انفسهم اعداء وخصوما للرسول، فوطنوا انفسهم على الاعراض عن كل ما جاء به من غير بحث ولا تأمل فيه أمعقول ام غير معقول؟ احق ام باطل؟ اخير ام شر؟ اهدى ام ضلال ، انافع ام ضار؟ فأنى يرجى لهم وهذه حالهم ان يهتدوا بتعدد نزول الآيات والسور؟ انما مثلهم كمثل اعداء الاسلام من اهل الملل التي جروا على نظام تعليمي وتربيـة وجدانية عملية في عصبيتهم الدينية والقومية وارتباط منافعهم الاجتماعية والسياسية بها : لفهم رؤساؤهم انه يوجد دين اسمه الاسلام بني أساسه على عداوتكم لذاتكم، فيجب عليكم أن لا تنظروا فيه إلا أن يكون للبحث عن مطعن ولو متكلف تلمزونه به، ولا تفكروا في شيء من حال أهله في دينهم ودنياهم إلا للعداوة والتحقير لهم ، وتدبير المكايد للعدوان عليهم، واذا ظهر لكم شيء حسن من دينهم فوجهوا كل قواكم العقلية وبلاغتكم الكلامية الى تشويهه وذمه والصد عنه ، وهذا ما يفعله رجال الكنائس النصرانية على اختلاف مذاهبهم كما بيناه في غير هذا الموضع

ومن المباحث الكلامية في الآيات الخلاف في زيادة الايمان ونقصه ،

على مذهبين في اثبات ذلك ونفيه، وجمهور السلف من الصحابة والتابعين وحفاظ السنة على الاثبات. وهذه المسألة من اغرب مسائل عصبيات المذاهب عند النظار الجدليين ومقلديهم، وما كان ينبغي لمسلم أن يجعل هذا موضع خلاف لبحث بعض من ينتسب اليهم في مفهوم لفظ الايمان الذي يتحقق باعتقاده الدخول في الملة هل يقبل الزيادة والنقصان في ذاته؟ أم المراد من هذه الآية وما في معناها متعلق الايمان من العقائد والاحكام التي كانت تشتمل عليها السورة؟ واستبعاد ان يكون التصديق الذي يكون به الكافر مؤمنا قابلا للزيادة والنقصان، وهي نظرية باطلة، وقد بينا معنى الآية بما يدل على ان قصر زيادة الايمان فيها على التصديق بزيادة العلم بما تضمنته باطل، لأن هذا بديهي لا يمكن ان يكون هو الذي سأل عنه المنافقون، ونصوص القرآن الكثيرة صريحة في زيادة الايمان ونقصه، وكذلك الاحاديث الصحيحة التي صرح فيها الرسول ﷺ بأن اقل الايمان وهو المنجي من الخلود في النار كالذرة او الخردلة من الايمان الكامل الذي لا يمس اهله من عذاب النار شيء، كالذين وصفهم الله بقوله (انما المؤمنون الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم) الخ وقوله (انما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا) الخ

والتحقيق ان اليقين في الايمان وغيره له درجات متفاوتة في القوة والضعف. واليقين الذي يصح به الايمان هو اليقين اللغوي وهو الاعتقاد الجازم في غير الحسيات والضروريات كما بيناه في مواضع اولها تفسير (٢ : ٣ وبالآخرة هم يوقنون) وهو درجات، منها التقليد الجازم ومنها المعلوم بالنظر والاستدلال، وقد يطرأ عليهما الشك والزوال، ولولا ذلك ما تصور ارتداد مؤمن عن دينه، ومنها ما يصير وجدانا ضروريا بشرح الصدر، والنور الالهي بكثرة الذكر والفكر والعبادة،

وأما اليقين المنطقي العلم القطعي بالبرهان بأن هذا الشيء كذا مع العلم القطعي باستحالة ان يكون غير كذا، فهو هو الذي قالوا انه لا يقبل الزيادة والنقصان، ولكنه نادر الوقوع في غير الضروريات ولا تتوقف عليه صحة الايمان، ومع هذا يمكن ان يقال انه قابل للزيادة في وصفه وطمأنينة القلب به، وفي ترتب آثاره عليه. ومثال الاول أن ترى شبحا في سدفة الفجر فتعلم انه انسان في انتصاب قامته ثم

تزداد علما به كلما انتشر الضياء حتى يكون العلم به تفصيليا. والبرهان المنطقي المفيد لهذا اليقين عندهم لا تكون مقدماته النظرية في درجة الضروريات قوة وثباتا. وقد قسم بعضهم اليقين الى ثلاث درجات علم اليقين وهو مايعلم بالدليل، وعين اليقين وهو مايكون بالمشاهدة والكشف، وحق اليقين وهو مايكون بالذوق والوجدان. ومثلها بعضهم بالفناء عند الصوفية، وبعضهم بالموت، فكل أحد عنده علم اليقين بأنه يموت فاذا عاين ملائكة الموت عند الحشرجة وقبل قبض الروح كان عين اليقين، فاذا مات بالفعل وصل الى درجة حق اليقين، لكن هذه الدرجة وما قبلها لا يتعلق بهما التكليف.

---

(١٢٨) لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ (١٢٩) فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ

ختم الله تعالى هذه السورة بهاتين الآيتين اللتين قال أبي بن كعب (رض) انهما آخر ما نزل وبينا في الكلام على السورة قبل الشروع في تفسيرها مايعارضه وسنحقق المسألة بعد الفراغ من تفسير الآيتين

﴿ لقد جاءكم رسول من أنفسكم ﴾ جمهور المفسرين على ان الخطاب هنا للعرب فهو في معنى قوله (هو الذي بعث في الاميين رسولا منهم) فالمنة به (ص) على قومه أعظم، والحجة عليهم به وبكتابه أنهض، وأخص قومه به قبيلته قريش فعشيرته الاقربون بنو هاشم وبنو المطلب، ولو لم يؤمن به وبكتابه العرب لما آمن العجم، وهو مبعوث إلى جميع الناس كما تقدم في قوله (٧:١٥٨ قل يا أيها الناس اني رسول الله اليكم جميعا) ولكنه وجه دعوته الى الاقرب فالاقرب على القاعدة التي بيناها آنفا في قتال الاقرب فالاقرب، فالعرب آمنوا بدعوته مباشرة والعجم آمنوا بدعوة العرب، العرب آمنوا بفهم القرآن وبيانه ﷺ له بالتبليغ والعمل، وبما شاهدوا من آيات الله تعالى في شخصه، والعجم آمنوا بدعوة العرب وما

شاهدوا من عدلهم وفضائلهم ، ثم بدعوة بعضهم لبعض بعد انتشار الاسلام فيهم ،

وقال الزجاج : ان الخطاب للعالم كله لعموم بعثته فيكون بمعنى ما يأتي في أول السورة التالية (أكان للناس عجباً أن أوحينا الى رجل منهم) الخ ولكن آية اول سورة يونس هذه في الرد على منكري كون البشر رسولا من الله وهو المحكي عن جميع كفار الامم ، وآية آخر سورة براءة في امتنان الله عز وجل على من أرسل اليهم الرسول من أنفسهم وصميم قومهم ، لتأييد الحجة بالمنة ، والترغيب في اجابة الدعوة ، فان من طبع كل قوم حب الاختصاص بالفضل والشرف على غيرهم ، كما قال تعالى في امتنانه عليه بالقرآن المجيد (وانه لذكر لك ولقومك) أي شرف لك ولهم ، تذكرون به في العالم ، ويدوّن لكم في التواريخ ، وانما قاومه وعانده أكابر قومه حتى من بني هاشم انفة واستكباراً عن اتباعه وهم يرونه دونهم ، ولما يتضمن اتباعه من الاقرار بكفرهم وكفر آبائهم وأجدادهم الذين يفاخرون بهم ، مع عدم ثقتهم بفوزه وبأنهم ينالون باتباعه من مجد الدنيا فوق ما كانوا عليه بمسافات تطاول السماء رفعة وشرفا ، دع ما هو فوق مجد الدنيا من سعادة الآخرة ، ثم انهم صاروا يفتخرون بكونه صلى الله عليه وسلم منهم ، بأكثر مما يبيحه دينه لهم ، حتى صار أقربهم يتكل على نسبه فيقصر في العلم والعمل ، وقد أكد تعالى هذه المنة الخاصة بوصفه هذا

الرسول بقوله ﴿ عزيز عليه ما عنتم ﴾ الخ العنت المشقة ولقاء المكروه الشديد وقيده الراغب بما يخاف منه الهلاك ، وعز على فلان الأمر : ثقل واشتد عليه ، وقالوا هو كناية عن الأنفة عنه ، وما مصدرية - أي شديد على طبعه وشعوره القومي عنتكم لانه منكم ، وهذا يشمل ما يكون في الدنيا وما يكون في الآخرة ، فلا يهون عليه أن يكونوا في دنياهم أمة ضعيفة ذليلة يعنتها أعداؤها بسيادتهم عليها وتحكمهم فيها ،

ولا أن يكونوا في الآخرة من أصحاب النار ﴿ حريص عليكم ﴾ الحرص شدة الرغبة في الحصول على المفقود ، وشدة العناية بحفظ الموجود ، وكان (ص) حريصا على اهتداء قومه به بايمان كافرهم وثبات مؤمنهم في دينه كما قال تعالى له (١٦ : ٣٧ إن تحرص على هداهم) الآية وقال (١٢ : ١٠٣ وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين)

﴿ بالمؤمنين رءوف رحيم ﴾ أي شديد الرأفة والرحمة بالمؤمنين فكل مايدعوهما اليه من العمل بشرائع الله تعالى فهو دليل على ثبوت هذه الصفات الكاملة والعواطف السامية له ﷺ بنص الله تعالى وهو أرحم بالمؤمنين وأرأف ، وكل شاق منها كالجهاد فهو منجاة مما هو أشق منه ، ولا شيء من الشاق منها ببالغ حد العنت ، للقطع في هذا الدين بنفي العسر والحرج .

وصف الله تعالى رسوله بصفتين من صفاته العلى ، وسماه باسمين من أسمائه الحسنى ، بعد وصفه بوصفين هما أفضل نعوت الرؤساء والزعماء المدبرين لأمور الامم بالحق والعدل والفضل ، وفي الصحاح والقاموس ان الرأفة أشد الرحمة . وجعلهما بعض اللغويين والمفسرين بمعنى واحد . وقال بعضهم ان الرأفة أخص لاتكاد تقع في الكراهية ، والرحمة قد تقع في الكراهية للمصلحة ، واختار الرازي انها مبالغة في رحمة مخصوصة من دفع المكروه وإزالة الضرر . وقال أستاذنا انها لا تستعمل إلا في حق من وقع في بلاء ، اختياراً لقول الرازي (ص١٢ ج٢ تفسير) وأصح منه انها تستعمل في مكان الضعف والشفقة والرقة كقولهم رأف بولده وترأف به . وتقديمه على الرحيم هو الواجب كأنه قال رءوف بضعفاء المؤمنين وأولي القربى منهم ، ورحيم بهم كلهم وتخصيص رأفته ورحمته (ص) بالمؤمنين ، في مقابلة ماأمر به من الغلظة على الكفار والمنافقين ، لايعارض كون رسالته رحمة للعالمين ، كما هو ظاهر ، فان هذه الرحمة مبذولة لجميع الامم لعموم بعثته (ص) ولكن منهم من قبلها ومنهم من ردها ، وقد بينا في تفسير (واغلظ عليهم) انه انما أمر بذلك صلوات الله تعالى عليه لان الغالب على طبعه الشريف الرقة والرحمة والادب في المقابلة والمعاشرة . وقد قال تعالى (ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك)

وفي التفسير المأثور عن ابن عباس (رض) في الآية (لقد جاءكم رسول من أنفسكم) قال ليس من العرب قبيلة إلا وقد ولدت النبي (ص) مضريها وربيعيها ويمانيها . يعني ان نسبه منشعب في جميع قبائل العرب وبطونها . وعنه في (عزيز عليه ماعنتم) قال شديد عليه ماشق عليكم (حريص عليكم) أن يؤمن كفاركم .

ومن القراءة الشاذة في الآية قراءة (أنفسكم) بفتح الفاء من النفاسة رواها ابن مردويه من حديث علي مرفوعا وقرأ بها ابن عباس والزهري وابن محيصن ورويت عن الامام جعفر الصادق عن ابيه الامام محمد الباقر ، وهي خبر واحد لا يثبت بها القرآن، وفيها ان المعهود في فصيح الكلام ان النفيس والانفس مما يوصف به الاشياء لا الاشخاص

﴿ فان تولوا فقل حسبي الله ﴾ هذا التفات عن خطاب أمة الرسول او قومه الذين امتن الله تعالى عليهم بمجيئه رسولا اليهم من انفسهم وبفضائله العائدة عليهم، إلى خطابه ﷺ وبيان مايجب عليه في حال إعراضهم عن الاهتداء والانتفاع بما خاطبهم به ربهم في شأنه . يقول : فان تولوا وانصرفوا عن الايمان بك والاهتداء بما جئتهم به، فقل حسبي الله أي هو محسبي الذي يكفيني أمر توليهم وإعراضهم، وما يعقبه من عداوتهم لي وصدهم عن سبيله وقد بلغت وما قصرت ﴿ لا اله الا هو ﴾ أي لا معبود غيره ألجأ اليه بالدعاء والاستعانة كما يلجئون إلى آلهتهم المنتحلة ﴿ عليه توكلت ﴾ وحده ، فلا أكل أمري فيما اعجز عنه إلى غيره ، وكيف لا اخصه بالتوكل ﴿ وهو رب العرش العظيم ﴾ الذي هو مركز تدبير أمور الخلق كلها كما قال الآية الثالثة من السورة التالية (ثم استوى على العرش يدبر الامر) قرأ جمهور القراء العظيم بالخفض على انه صفة للعرش . وقرىء بالرفع على انه صفة لرب ، ورويت هذه القراءة عن ابن كثير . وعظمة العرش بعظمة الرب الذي استوى عليه ، وعظمة الملك الكبير الذي هو مركز تدبيره ووحدة النظام فيه ، وعظمتهما في الملأ الأعلى وفيما دونه هي المظهر الوجودي لعظمة هذا الرب التي لا تحد ، ولا يدرك كنهها احد ، ودليل على انه الاله الحق الذي لا يصح أن يعبد غيره ولا يتوكل على سواه ، وكيف يعبد غيره بالدعاء أو غيره أو يتوكل على سواه من يعلم أنه هو الرب المالك للعالم كله والمدبر لاموره. ويراجع هنا تفسير (٨ : ٦٤ يا أيها النبي حسبك الله) [في ص٧٤ ج١٠] وفسر بعضهم العرش هنا

بالملك (بالضم) لانه يطلق عليه تجوزا ،وهو خطأ منهم لان هذا التجوز لا مسوغ له ، ولا يصح في كل الآيات التي ورد فيها اللفظ ، والمعنى الحقيقي أبلغ منه وأعم، فانه يدل على المعنى المجازي وزيادة إذ ليس لكل ملك في الارض عرش حقيقي هو المركز الوحيد لتدبير كل شيء فيه . فالعرش العظيم يدل على الملك العظيم وعلى وحدة النظام والتدبير فيه ، ولفظ: الملك العظيم لايدل على هذا، لاحتمال وجود الخلل فيه وكون تدبيره ليس له مرجع وحدة تكفل النظام ، وتمنع الخلل والفساد ، ونظار المتكلمين ومفسروهم يتأولون العرش والاستواء عليه فراراً من التشبيه الذي يستلزمه بزعمهم المبني على قياس عالم الغيب على عالم الشهادة ،وقياس الخالق على المخلوق ، وهو قياس باطل باجماعهم ، وقال ابن عباس سمي العرش عرشا لارتفاعه ، وفي الدر المنثور روايات في وصف العرش ومادته هي من الاسرائيليات لايصح فيها شيء مرفوع .

ونختم تفسير الآيتين بتحقيق مسألتين ذكرتا في تفسيرهما المأثور ولم نر احدا حققهما:

﴿ الاولى ماورد في كتابة الآيتين عن النبي ﷺ وكونهما آخر مانزل ﴾

إن معنى هاتين الآيتين لايظهر إلا في دعوته ﷺ الى الاسلام بمكة في أول زمن البعثة . وقد ذكرت في الكلام على هذه السورة قبل البدء بتفسيرها ان ابن أبي الفرس قال انهما مكيتان، وأنه يرد قوله ماورد من انهما آخر مانزل من القرآن، ثم ذكرت هنالك أصح ماورد في آخر مانزل من القرآن وهو غير هاتين الآيتين .

وأقول الآن إن قول ابن أبي الفرس هو الوجيه من جانب المعنى فهو يؤيد الرواية وأما القول بأنهما آخر ما نزل فقد أخرج في بعض المسانيد والتفاسير المأثورة عن أبي بن كعب بألفاظ متقاربة (منها) عن ابن عباس عنه : ان آخر آية أنزلت على النبي صلى الله عليه وسلم وفي لفظ ان آخر ما انزل من القرآن (لقد جاءكم رسول من أنفسكم) الخ الآية (ومنها) عن الحسن عنه انه كان يقول : إن احدث القرآن عهداً بالله ـ وفي لفظ بالسماء ـ هاتان الآيتان (لقد جاءكم رسول من أنفسكم) الخ السورة (ومنها) من طريق أبي العالية عنه انهم جمعوا القرآن في مصحف في

خلافة أبي بكر فكان رجال يكتبون ويملّ عليهم أبي بن كعب حتى انتهوا الى هذه الآية من سورة براءة (ثم انصرفوا صرف الله قلوبهم بأنهم قوم لا يفقهون) فظنوا ان هذا آخر ما نزل من القرآن فقال أبي بن كعب ان النبي ﷺ قد أقرأني بعد هذا آيتين (لقد جاءكم - الى - رب العرش العظيم) قال فختم الامر بما فتح به: بلا إله الا الله. اه وهو صريح في انهما آخر ما نزل من هذه السورة، لا من القرآن مطلقا الا اذا صح أن سورة براءة آخر سورة نزلت والصحيح في الرواية أن آخر ما نزل من السور سورة النصر ومن الآيات (٢٨١:٢ واتقوا يوما ترجعون فيه الى الله) كما تقدم في محله

وفي حديث زيد بن ثابت في جمع القرآن المكتوب الذي كان متفرقا في عهد أبي بكر عند ابن سعد وأحمد والبخاري والترمذي والنسائي وغيرهم - انه قال: حتى وجدت من سورة التوبة آيتين مع خزيمة بن ثابت الانصاري لم أجدهما مع احد غيره (لقد جاءكم رسول من أنفسكم) الى آخرهما اه والمراد انه لم يجدهما مكتوبتين عند ما جمع المكتوب في الرقاع والاكتاف والعسب في هذه السورة إلا عند خزيمة، وفي رواية في البخاري وغيره عند ابي خزيمة وهي أرجح كما سيأتي، الا ان تكونا وجدتا عند كل منهما - وكانتا محفوظتين معروفتين للكثيرين كما صرح به في الروايات الأخرى. فقد أخرج ابن اسحاق واحمد وابن أبي داود في المصاحف عن عباد بن عبد الله بن الزبير قال: أتى الحارث بن خزيمة بهاتين الآيتين من آخر براءة (لقد جاءكم رسول - الى قوله - وهو رب العظيم) الى عمر فقال من معك على هذا؟ فقال: لا أدري والله الا اني اشهد لسمعتهما من رسول الله ﷺ ووعيتهما وحفظتهما، فقال عمر وأنا اشهد لسمعتهما من رسول الله ﷺ لو كانت ثلاث آيات لجعلتها سورة على حدة، فانظروا سورة من القرآن فألحقوها بها، فألحقت في آخر براءة. وأخرج ابن جرير وابن المنذر وأبو الشيخ ان رجلا من الانصار جاء بهما عمر فقال عمر لا أسألك عليهما بينة ابدا كذلك كان رسول الله ﷺ يقرأهما

وأخرج ابن ابي داود في المصاحف ان خزيمة بن ثابت جاء عثمان حين تصدى لكتابة القرآن بعد مقتل عمر فقال اني رأيتكم تركتم آيتين لم تكتبوهما، فقالوا ما هما؟ قال تلقيت من رسول الله ﷺ (لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز

عليه ما عنتم) الخ السورة . فقال عثمان : وأنا أشهد انهما من عندالله فأين ترى ان نجعلهما؟قال اختم بهما آخر مانزلت من القرآن فختمت بهما براءة

فيؤخذ من مجموع الروايات ان الآيتين كانتا محفوظتين مشهورتين الا انهم اختلفوا في موضعهما ، ففي بعضها انهما آخر سورة براءة بالتوقيف من النبي ﷺ ، وفي بعضها انهما وضعتا بالرأي والاجتهاد ، والمعتمد الاول قطعا لان من حفظ التوقيف حجة على من لم يحفظ . والظاهر ان سبب الاختلاف في موضعهما ان موضوعهما يدل على انهما مكيتان ، ولم تصح لجماعة جامعي المصحف رواية بكتابتهما في إحدى السور المكية ، ولكن وجدتا عند أبي خزيمة مكتوبتين في آخر براءة . وفي الصحيح ان زيد بن ثابت - الذي كان يكتب الوحي لرسول الله ﷺ وهو الذي امره أبو بكر بجمع القرآن مع آخرين وكان عمر يحضرهم وهم يكتبون قال : فوجدت آخر براءة مع خزيمة بن ثابت او ابى خزيمة بالشك وهو من الراوي لا من زيد ، وفي رواية عنه مع خزيمة ، والتحقيق الذي قرره الحافظ ابن حجر ان آخر التوبة وجد عند ابي خزيمة ، وأما الذي وجد مع خزيمة فهو آية الاحزاب . وذلك ما رواه البخاري في تفسير سورتها عن زيد بن ثابت قال : لما نسخنا الصحف في المصاحف فقدت آية من سورة الاحزاب كنت أسمع رسول الله ﷺ يقرؤها لم اجدها مع احد الا مع خزيمة الانصاري الذي جعل رسول الله ﷺ شهادته شهادة رجلين من المؤمنين (رجال صدقوا ماعاهدوا الله عليه) قال الحافظ في شرحه : هذا يدل على أن زيداً لم يكن يعتمد في جمع القرآن على علمه ولا يقتصر على حفظه . لكن فيه إشكال لان ظاهره انه اكتفى مع ذلك بخزيمة وحده والقرآن انما يثبت بالتواتر . والذي يظهر في الجواب ان الذي اشار اليه انه فقده فقد وجودها مكتوبة لا فقد وجودها محفوظة ، بل كانت محفوظة عنده وعند غيره ، ويدل على هذا قوله في حديث جمع القرآن « فجعلت أتتبعه من الرقاع والعسب كما سيأتي مبسوطا في فضائل القرآن اه

وأقول انني قد ذكرت آنفا ان هذا هو المراد منه وهو ما كنت افهمه دون غيره وأجيب به من سألني عنه مستشكلا . فقول الحافظ : والذي يظهر الخ

كان يجب أن يكون : والذي يتعين القطع به كذا ، وحسبك دليلا على هذا انه قال أنهم كانوا يسمعون رسول الله ﷺ يقرؤها فهو صريح في أن البحث كان عمن كتبها فقط . وجملة القول ان الآيتين كانتا محفوظتين ومكتوبتين ومعروفتين لكثير من الصحابة وانما اختلفوا عند الجمع في موضع كتابتهما حتى شهد من شهد ان النبي ﷺ هو الذي وضعهما في آخر سورة براءة وفاقا لقول أبي بن كعب الذى ثبت في الصحيح أنه أحد الذين تلقوا القرآن كله مرتبا عن النبي ﷺ وكذا زيد بن ثابت . وكان عدد المختلفين في موضعهما قليلا فلما كتبتا في المصاحف وافق الجميع على وضعهما ههنا ، ولم يرو أي اعتراض على ذلك ممن كتبوا لانفسهم مصاحف اعتمدوا فيها على حفظهم كابن مسعود (رض)

بقى البحث في حكمة وضعهما في آخر هذه السورة المدنية وموضوعهما مكي يؤيده كون الخطاب فيهما لقومه ﷺ على ماجزم به جماهير المفسرين ، وماهما بأول ما وضع من الآيات المكية في السور المدنية لمناسبة اقتضت ذلك . ولعل الحكمة في ذلك ان يفيدا بموضعهما صحة الخطاب بهما لكل من تبلغه الدعوة من أمة الاجابة ، وهو ماذهب إليه الخطابي ، كما دل موضوعهما ونزولهما بمكة ـ كما قال ابن أبي الفرس ـ على كون الخطاب فيهما لقومه ﷺ وهو ماجزم به الجماهير . ويكون ماقلناه جامعا بين الاقوال كلها

(طهارة نسبه ﷺ وفضل قومه واصطفاؤه من خيارهم)

من المأثور في تفسير الآيتين ما ذكروا في قوله تعالى (رسول من أنفسكم) من الاحاديث المرفوعة في طهارة نسبه ﷺ من سفاح الجاهلية ومن فضل قومه وعشيرته وعترته واهل بيته على غيرهم . وأصح ماورد في هذا مارواه مسلم والترمذي من حديث واثلة (رض) مرفوعا « ان الله اصطفى كنانة من ولد اسماعيل ، واصطفى قريشاً من كنانة ، واصطفى من قريش بني هاشم ، واصطفاني من بني هاشم » ولم أر لاحد من العلماء بيانا لمعنى هذا الاصطفاء بم كان ؟ وقد وفقني الله لاستنباطه من التاريخ العام ، وبينته في المنار وفي خلاصة السيرة المحمدية في

جواب السؤال عن حكمة بعثة خاتم النبيين، بالرسالة العامة للناس أجمعين ، بالدين العام للبدو والحضر من العرب الذين غلبت عليهم جهالة البدو ، وبعد عهدهم بما سبق لامتهم من الحضارة والعلم ، ولم يبعث من بعض شعوب الحضارة القريبة كالفرس والروم والهند والصين ، ويليه السؤال عن مزية كنانة في العرب من آل اسماعيل، الذين امتازوا على سائر العرب بانهم ممن اصطفى الله من آل ابراهيم، ثم عن مزية قريش في بني كنانة وفضل بني هاشم على سائر قريش ؟

خلاصة ما بينته في فضل العرب على سائر الامم، الذي أعدهم به الله لبعثة سيد البشر من العرب والعجم ، بالدين العام الباقي هي ان جميع شعوب الحضارة المشار اليها وغيرها كانت قد فسدت غرائزها وأخلاقها الفطرية ، وعقائدها الدينية ، وآدابها التقليدية ، بفساد رؤساء الدين والدنيا فيها ، وتعاون الفريقين على استعبادها واستذلالها لها ، وتسخيرها لتوفير لذاتهما وتشييد صروح عظمتهما ، بسلب حريتهم العقلية بالتقاليد الدينية التي يفرض عليهم الكهنة والاحبار والقسوس الخضوع لها ، بدون أن يكون لهم أدنى رأي أو اختيار او فهم فيها ، وسلب حرية ارادتهم في حياتهم الشخصية والاجتماعية ، بما يضع لهم الملوك والحكام من القوانين والنظم الادارية والعسكرية الاستبدادية ، وبتحكمهم فيهم بدون قانون ولا نظام ايضا ، فجميع الامم والشعوب كانت مرهقة مستعبدة في دينها ودنياها الا العرب ولاسيما عرب الحجاز

واما العرب فلم يكن عندهم رياسة حكم استبدادية تستذلهم وتفسد بأسهم وتقهر ارادتهم على ما لا يريدون ، ولا رياسة دينية تقهرهم على اتباع تقاليد تعبدية لا يعقلونها ، بل كانوا على أتم الحرية العقلية واستقلال الارادة في دينهم ودنياهم ، وفي أعلى ذروة من عزة النفس ، وشدة البأس ، فبحرية عقولهم كانوا على أتم الاستعداد لفهم دين العقل والفطرة ، وباستقلال ارادتهم كانوا على أكمل الاستعداد للنهوض بما اعتقدوا حقيته وصلاحه وخيريته ، ولاقامته في قومهم ، ونشره في غيرهم ، والدفاع عنه باختيارهم ، وتصرفهم في كل ذلك بمقتضى الوازع النفسي ، دون تحكم رئيس ديني ولا دنيوي ، فان هذا الدين انما أوجب طاعة الأئمة والقواد بالمعروف والاذعان للشرع ، وما تضعه الامة لنفسها من النظام بالشورى بين ممثليها من اهل الحل

والعقد ، حتى فرض الله على الرسول ﷺ مشاورتها في أمورها ، وقال له ربه في صيغة مبايعة نسائها له (ولا يعصينك في معروف) وبها كان يبايع الرجال كالنساء ولذلك قال ﷺ « لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق انما الطاعة في المعروف » رواه البخاري ومسلم وأبو داود والنسائي من حديث علي كرم الله وجهه

وأما كنانة فقد كان أشهر ذرية اسماعيل في العلم والحكمة ، والكرم والنبل ، حتى كانت العرب تحج اليه ، وينقلون عنه حكما رائعة ، وكفى بهذا اصطفاء عليهم ، وامتيازاً فيهم ،

واما امتياز قريش على سائر العرب فهو معروف متواتر وأهمه أن ماذكرناه من عزة النفس ، واستقلال الارادة والعقل ، كان اكمل فيهم ، فان بعض العرب في اطراف جزيرتهم خضعوا لسيادة الفرس والروم خضوعا ما ، وجملته انهم كانوا أصرح ولد اسماعيل أنسابا ، وأشرفهم احسابا ، وأعلاهم آدابا ، وأفصحهم ألسنة ، وهم المهدون لجمع الكلمة العامة ، بعد أن جمع قصي جميع قبائلهم بمكة ، واستقلوا بخدمة المسجد الحرام من الحجابة وسقاية الحاج والرفادة وهي اسعاف الفقراء والمساكين من الحجاج وغيرهم ، وأسسوا دار الندوة لاجل الشورى في الامور الملهمة ، وكانوا أعرف العرب ببطون العرب في جميع جزيرتهم بما كانوا يتناوبونه من رحلة الشتاء والصيف ، وبذلك كانوا أغنى العرب أيضاً واشرفهم بلا منازع ، وناهيك بما عقدوا من حلف الفضول في حداثة سن الرسول وهو انهم تعاقدوا وتعاهدوا أن لا يجدوا بمكة مظلوما إلا قاموا معه ، وكانوا عونا له على من ظلمه إلى أن ترد مظلمته ، وفي حديث الزبير بن العوام وأم هانيء عن الطبراني وتاريخ البخاري « فضل الله قريشاً بسبع خصال : فضلهم بانهم عبدوا الله عشر سنين لا يعبد الله إلا قرشي (أي لا يعبده وحده من العرب إلا قرشي) وفضلهم بانه نصرهم يوم الفيل وهم مشركون (أي نصرهم على قوة تفوق قوتهم كثيراً مما يشبه نصره لرسله في كونه بدون استعداد كسبي يقرب من استعداد عدوهم) وفضلهم بانه نزل فيهم سورة من القرآن لم يدخل فيها أحد من العالمين وهي (لايلاف قريش) وفضلهم بان فيهم النبوة والخلافة والحجابة والسقاية »

وأما اصطفاؤه تعالى لبني هاشم على قريش فقد كان بما امتازوا به من الفضائل والمكارم فقد كان جدهم هاشم هو صاحب إيلاف قريش الذي أخذ لهم العهد من قيصر الروم على حمايتهم في رحلة الصيف إلى الشام، ومن حكومة اليمن في رحلة الشتاء، وهو أول من هشم الثريد للفقراء من قومه ولاهل موسم الحج كافة، وقد أربى عليه في السخاء والكرم ولده عبد المطلب، وجملة القول ان بني هاشم كانوا أكرم قريش أخلاقا وأبعدهم عن الكبر والاثرة، لا ينازعهم أحد في ذلك، وقد قال أبو جهل في حسده إياهم على كون الرسول ﷺ منهم: تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف: أطعموا فأطعمنا، وحملوا فحملنا، واعطوا فاعطينا . . . حتى إذا زاحمناهم بالمناكب قالوا منا نبي يأتيه الوحي من السماء. فمتى ندرك هذه؟ ويؤخذ منه أنهم كانوا يعلمون ان النبوة لا يمكن أن تكون بالاجتهاد والمباراة الكسبية في الفضائل، وان القرآن لا يمكن أن يعارضه أحد في بلاغته ولا هدايته، لانه من الله لا من علم محمد ﷺ وفصاحته وبلاغته، ولولا ذلك لعارضه من كانوا أشهر العرب في ذلك ولم يكن محمد منهم

وقد ورد في فضل هذه الخاتمة لهذه السورة المباركة ما رواه أبو داود عن أبي الدرداء موقوفا وابن السني عن أبي الدرداء مرفوعا قال قال رسول الله ﷺ «من قال حين يصبح وحين يمسي: حسبي الله لا إله إلا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم ـ سبع مرات ـ كفاه الله ما أهمه من أمر الدنيا والآخرة» كذا في الدر المنثور ويراجع ما قاله ابن كثير آخر في تفسير السورة فيه، وهو لا يمنع العمل به، وحسبنا الله ونعم الوكيل، والحمد لله رب العالمين

(تم تفسير سورة براءة بفضل الله وتوفيقه في شهر صفر سنة خمسين وثلاثمائة والف وبقي تلخيص ما فيها من أصول الدين وأحكامه وحكمه وسياسته وآدابه وسنن الله في ذلك، فنسأله تعالى توفيقنا فيه للحق الذي يرضاه وينفع عباده)

خلاصة سورة براءة (التوبة)

﴿ وهي خمسة أبواب وفيها فصول ﴾

(هذه السورة آخر السور المدنية الطول نزولا فيقل فيها ذكر أصول الدين وما يناسبها من الحجج العقلية والسنن الكونية وكذا أحكام العبادات البدنية . — راجع مقدمة خلاصة سورة الانفال في ص ١١٨ والتناسب بين السورتين في ص ١٤٧ ج ١٠)

الباب الاول

(في صفات الله تعالى وأفعاله وشؤونه في خلقه وأحكامه وسننه فيها)

وفيه أربعة فصول

(الفصل الاول في الاسماء والصفات الالهية والاضافات اليه تعالى)

(١ — الاسماء والصفات)

في هذه السورة من أسماء الله الحسنى وصفاته العلى : الغفور الرحيم ، الرؤف الرحيم ، العليم الحكيم ، العزيز الحكيم ، السميع العليم ، عالم الغيب والشهادة . ومنها المكرر مرتين وثلاثا أو أكثر ، وكل منها موضوع في موضعه المناسب لمعناه في السياق أو الآية . وأما الفائدة العامة لذكر أسماء الله تعالى وصفاته وتكرارها في المواضع المختلفة فهي تذكير تالي القرآن وسامعه المرة بعد المرة بربه وخالقه وما هو متصف به من صفات الكمال الذي يثمر له زيادة تعظيمه وحبه ، والرجاء في رحمته وإحسانه ، والخوف من عقابه ، لمن أعرض عن هداية كتابه ، أو خالف حكمته وسننه في خلقه ، وهذا أعلا مقاصد القرآن ، في إكمال الايمان ، وإعلاء شأن الانسان (فراجعه في ص ١١٩ ج ١٠)

ومما ورد فيها في العلم الالهي قوله تعالى (٧٨ ألم يعلموا أن الله يعلم سرهم ونجواهم ، وأن الله علام الغيوب) وقوله (١٦ أم حسبتم أن تتركوا ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم — الى قوله — والله خبير بما تعملون) وهما أعظم ما يجدد في القلب مراقبته عز وجل عند كل قول وعمل ، وحسبك بهما وازعا ورافعا

(٢ ـ المعية الالهية)

في هذه السورة من المعية العليا قوله تعالى في آية الغار عن رسوله ﷺ (٤٠ إذ يقول لصاحبه لا تحزن ان الله معنا) وهي معية النصر والمعونة ، والحفظ والعصمة ، والتأييد والرحمة، كما يقتضيه المقام في حال الهجرة ، وهذه المعية أفضل من كل ما ورد في معناها ، ومن أعظمه قوله تعالى لكليمه موسى وأخيه هارون عليهما السلام (لا تخافا انني معكما أسمع وأرى) فراجع (ص ٤٢٧ ج ١٠) وفي الآية ١٢٣ (واعلموا أن الله مع المتقين) وهذه معية النصر لانها معطوفة على الامر بالقتال ويقال في كل منها مع العلم بمعناها انها معية تليق به تعالى

(٣ ـ الدرجة والعندية الالهية وسكينته تعالى)

قال تعالى (٢٠ الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله أعظم درجة عند الله) الآية . وقد قلنا في تفسير هذه العندية [ص ٢٢٠ ج ١٠] انها حكمية [بضم الحاء] شرعية ، ومكانية جزائية ، أي هم أعظم درجة في الفضل والكمال في حكم الله، وأكبر مثوبة في جوار الله

وقال بعد بشارتهم بالرحمة والرضوان والجنات والنعيم المقيم والخلود فيها من الآية (٢٢ ان الله عنده أجر عظيم) وهو استئناف بياني فالعندية فيه مفسرة لما قبلها. وقال (٣٦ ان عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً في كتاب الله يوم خلق السموات والارض) فالعندية هنا يفسرها ما بعدها وهو كتاب الله الذي كتب فيه مقادير السموات والارض ونظام الايام والليالي والشهور والسنين . وقيل كتابه المنزل الذي فيه حكمه التشريعي في الشهور وهو قوله بعد ماذكر [منها أربعة حرم] الخ

وفي الآية (٥٢ ونحن نتربص بكم أن يصيبكم الله بعذاب من عنده أو بأيدينا) فعندية العذاب عبارة عن كونه بفعله تعالى دون كسب للمؤمنين وهو ما يسمى بالمصائب السماوية بدليل مقابلته بقوله [أو بأيدينا] والاضافة في العندية الحكمية للتوقيف والتعريف، وفي العندية المكانية للتشريف، ومثلها إضافة السكينة اليه تعالى

٤ ـ حب الله ورضاه وكرهه وسخطه وغضبه

قال تعالى (٧ ان الله يحب المتقين) وقال في المهاجرين والانصار [١٠٠ رضي الله عنهم ورضوا عنه] وقال في جزاء المهاجرين المجاهدين [٧٢ ورضوان من الله أكبر] ويدخل في معناه ماصح في الاحاديث من مقام الرؤية كما بيناه في تفسيرها وقال في شأن المنافقين [٩٦ فان ترضوا عنهم فان الله لا يرضى عن القوم الفاسقين] أسند الله تعالى الى نفسه الحب والرضى في هذه الآيات وفي سور أخرى ، كما أثبت لنفسه الكره في قوله من هذه السورة [٤٧ ولكن كره الله انبعاثهم] والسخط والغضب في سور أخرى . والمتكلمون يتأولون هذه الصفات بالاثابة والاحسان من لوازم الحب والرضى ، وبالعقاب من لوازم السخط والكره والغضب ، فراراً من تشبيه الخالق بعبيده الذين تعد هذه الصفات انفعالات نفسية لهم يتنزه الله عنها . ومذهب السلف الصالح إثبات ما أثبته الله تعالى لنفسه وأثبته له رسوله من غير تعطيل ولا تمثيل ولا تأويل ، فيقولون ان حب الله تعالى وكرهه ورضاه وغضبه صفات تليق به تترتب عليها آثارها ، وهي لا تماثل ما سمي باسمها من صفات البشر ، كما ان ذاته ونفسه وعلمه وقدرته لا تماثل ذوات البشر وعلمهم وقدرتهم بلا فرق . بل نقول ان من خلق الله في عالم الغيب من الجن والملائكة لا يماثل في إدراكاته ولا في غيرها ما في عالم الشهادة ، بل روي في ثمر الجنة أنه يشبه ثمر الدنيا وليس مثله وعن ابن عباس [رض] انه ليس في الجنة من أطعمة الدنيا الا الاسماء . وقال تعالى في نعيم الآخرة [فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين] وقال النبي ﷺ في تفسيره له « قال الله تعالى : أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر » وأمر بقراءة الآية متفق عليه

وأما الكلام مع أهل التاويل من ناحية الادلة العقلية التي يزعمون الانفراد بها دون علماء السلف فهو أن حب الحق والخير كالايمان والعدل وأهلها ، وكراهة الباطل كالكفر ، والشر كالظلم ومجترحيها ، كلاهما من صفات الكمال المحض ، وكل ما كان كمالا محضا فالعقل يوجبه لواجب الوجود بأعلا مما يكون

منه للوجود الممكن ـ فقد اتفق العقل مع النقل على إثبات هذه الصفات لله بمعنى أكمل مما هي في خيار الناس ، ولكن لا يمكن وضع أسماء لها من كلام الناس تدل على الفرق بين مسمياتها في الخالق والمخلوق ، فوجب الرجوع في ذلك إلى الوحي الفاصل وهو قوله تعالى [ليس كمثله شيء وهو السميع البصير] فالتنزيه في الجملة الاولى السالبة أزال ما يستلزمه التشبيه في الجملة الثانية الموجبة ، بل قال الشيخ محيي الدين بن عربي في تفسير هذه الآية ان الايمان الصحيح هو الجمع بين التنزيه والتشبيه

(الفصل الثاني)

﴿ أفعال الله في تصرفه وتدبيره لامور خلقه بمقتضى سننه ، لا يجعلهم مجبرين بقدرته ﴾

قال تعالى (١٤ قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ويخزهم وينصركم عليهم) الآية. يتوهم أهل الجبر انها تدل على تحلتهم ، ويرده انه تعالى أمرهم بقتال المشركين ، ولو كانوا مجبرين لكان أمرهم لغواً وعبثا . وقوله (يعذبهم الله بأيديكم) معناه يعذبهم بتمكين أيديكم من رقابهم قتلا ، ومن صدورهم ونحورهم طعنا ، ويؤكده الوعد بعده بنصرهم وفي معناه قوله (٥٢ ونحن نتربص بكم أن يصيبكم الله بعذاب من عنده أو بأيدينا)

وقال تعالى في آية (١٩ والله لا يهدي القوم الظالمين * وقال في آيتي ٢٤ و ٨٠ والله لا يهدي القوم الفاسقين * وقال (٣٧ والله لا يهدي القوم الكافرين) وليس معنى هذه الآيات ان الله تعالى منعهم من الهداية بقدرته فصاروا عاجزين عنها ومجبرين على الفسق والظلم والكفر إجباراً ، وإنما معناها ما بيناه في تفسيرها وهو ان هذه الصفات التي رسخت في انفسهم بكسبهم منافية لهدى الله تعالى الذي بعث به رسله بحسب سنته تعالى في الاسباب والمسببات (راجع ص ٢١٩ و ٢٣٦ و ٤١٩ و ٥٦٧ ج ١٠) ويقابله قوله تعالى قبل الآية الاولى من هذه الآيات فيمن ترجى لهم الهداية بحسب سنن الله تعالى (١٨ إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش إلا الله ، فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين)

ويدخل في هذا الباب من بيان السنن وطبائع البشر قوله في خوالف المنافقين (٨٧ وطبع على قلوبهم فهم لا يفقهون) ثم قوله فيهم (٩٣ وطبع الله على قلوبهم فهم لا يعلمون) فهو بيان لسنة الله في تأثير أعمالهم التي منها رضاهم بخطة الخسف والذل وهو التخلف عن الجهاد ان قلوبهم كالمطبوع عليها التي لا تفقه كنه حالها ولا تعلم سوء مآلها (ص ٥٩٠ ج ١٠) وفي معناه قوله في الذين ينصرفون منهم متسللين من مجلس القرآن (١٢٧ ثم انصرفوا صرف الله قلوبهم بأنهم قوم لا يفقهون) أي بسبب انهم قوم فقدوا صفة الفقاهة الفطرية وفهم الحقائق وما يترتب عليها من الاعمال لعدم استعمال عقولهم فيها الخ مافصلناه في تفسيرها (ص ٨٥ ج ١١)

وبهذه المرآة ترى حقيقة المراد من قوله تعالى فيهم(٤٦ ولكن كره الله انبعاثهم فثبطهم) وراجعه في ص ٤٧١ ج ١٠ وقوله (٦٧ نسوا الله فنسيهم) وراجعه في ص ٥٣٤ ج ١٠

﴿ الفصل الثالث ﴾

في تعليل أفعال الله تعالى وأحكامه وسننه فيها

١ — ترى تعليل الامر باتمام العهود الموقتة بقوله تعالى (ان الله يحب المتقين)

٢ — « « « بتخلية سبيل التائبين من المشركين بقوله تعالى (ان الله غفور رحيم)

٣ — « « « باجارة المشرك المستجير لسماع كلام الله بقوله (ذلك بأنهم قوم لا يعلمون)

٤ — « « « بقتال المشركين الناكثين للعهد بقوله (لعلهم ينتهون)

٥ — « « عدم قبول صدقات المنافقين بفسقهم ثم بكفرهم في آيتي ٥٣ و ٥٤

٦ — « « « المغفرة لهم بكفرهم بالله ورسوله وفسقهم في الآية ٧٩

٧ — « « النهي عن الصلاة على موتاهم بكفرهم بالله ورسوله في الآية ٨٤

٨ — « « الامر بأخذ الصدقة من المؤمنين بتطهيرهم وتزكيتهم بها [١٠٣]

٩ — « « فتنة المنافقين في كل عام بأمل التوبة والتذكر [١٢٦]

فيعلم من كل تعليل ان حكمته تعالى في أفعاله وأحكامه منفعة عباده ومصلحتهم وخيرهم

سننه تعالى في أفراد البشر وأقوامهم وأممهم

بينا سنن الله تعالى في تأثير العقائد والصفات النفسية في الاعمال وترتب الاعمال عليها في مواضع [منها] إخزاء الكافرين في الآية الاولى [ومنها] نفي هداية الله تعالى للظالمين والفاسقين والكافرين في الآيات ١٩ و ٢٤ و ٣٧ و ٨٠ [ومنها] كراهته تعالى انبعاث المنافقين للقتال وتثبيطه لهم وقوله [اقعدوا مع القاعدين] في الآية ٤٦ [ومنها] طبعه على قلوبهم في الآيتين ٨٧ و ٩٣ وفي معناه صرف قلوبهم عن الايمان بالقرآن في الآية ١٢٧ وتقدم بيان هذا في الفصل الذي قبل هذا

ومن بيان سننه تعالى في الامم قوله تعالى (٣٩ إلا تنفروا يعذبكم عذابا أليما ويستبدل قوما غيركم) فبقاء الامم وعزتها يتوقفان على قوة الدفاع الحربية [راجع تفسيرها في ص ٤٢٥] ومنها قوله [٤٧ لو خرجوا فيكم ما زادوكم إلا خبالا] فراجع تفسيرها في ص ٧٢ ومنها قوله (١١٥ وما كان الله ليضل قوما بعد اذ هداهم حتى يتبين لهم ما يتقون

﴿ الفصل الرابع ﴾

في قضاء الله وقدره وولايته للمؤمنين وتوكلهم عليه

هذه عدة عقائد من أصول الايمان ، وكمال التوحيد والايقان ، جمعت كلها في آية واحدة من هذه السورة أمر الله تعالى نبيه ﷺ أن يرد بها على المنافقين الذين أخبره عنهم بأنهم تسوءهم كل حسنة تصيبه كالنصر والغنيمة في غزوة بدر ، وتفرحهم كل مصيبة تصيبه كالنكبة التي وقعت في غزوة أحد وهي (٥١ قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا هو مولانا وعلى الله فليتوكل المؤمنون) فتصور حال مؤمن يوقن أنه لن يصيبه الا ما كتبه الله له ـ وأنه ان لم يكن يعرف هذا المكتوب له بعينه فهو يعتقد أنه لا يعدو في جملته وعده تعالى له من حيث هو مؤمن من الخير والنصر والشهادة في سبيل الله المعبر عنهما بالحسنيين في الآية التي بعد هذه [أي آية ٥٢] ويعتقد أن الله تعالى هو مولاه الذي يتولى نصره وتوفيقه ، فهو بمقتضى إيمانه يتوكل عليه ويفوض أمره اليه ، تصور حال مؤمن تمكنت هذه العقائد من نفسه ، وملكت عليه وجدانه ، هل يخاف من غير الله ؟ هل ييأس من روح الله ؟

هل يمنعه أي خطب من الخطوب عن الجهاد لاعلاء كلمة الله ، واقامة دين الله ، وبذل الجهد ، في اقامة الحق والعدل ، ومد بساط البر والفضل ؟؟ وتصور حال أمة يغلب على أفرادها ماذكر ألا تكون أعز الامم نفساً ، وأشدها بأسا ؟

ويؤيد هذه العقائد ويزيدها رسوخا في قلب تالي هذه السورة ختمها بقوله عز وجل (١٢٩ فان تولوا فقل حسبي الله لا إله الا هو ، عليه توكلت وهو رب العرش العظيم) فينبغي للمؤمن أن يتأمل معناها ويطالب نفسه بالتحقق به ، فانه يجد به من حلاوة الايمان وعزة النفس ما يحتقر به خسائس المادة التي يتكالب الماديون عليها ، ويبخعون أنفسهم انتحارا اذا فاتهم أو أعياهم شيء منها ، وقد ورد في ذلك عن أم الدرداء عن أبي الدرداء [رض] من قال إذا أصبح وإذا أمسى « حسبي الله لا اله الا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم سبع مرات كفاه الله ما أهمه » وقد تقدم هذا في تفسير الاية (ص ٩٧)

الباب الثاني

(في مكانة محمد رسول الله وخاتم النبيين عند ربه وفي هداية دينه وحقوقه على أمته)

وفيه ثلاثة فصول

﴿ الفصل الاول في اقتران اسمه باسم ربه وحقه ﷺ بحقه عز وجل ﴾

وفيه أربعة عشر شاهدا

(١ و ٢) افتتحت هذه السورة بقوله تعالى (براءة من الله ورسوله الى الذين عاهدتم من المشركين) وعطف عليها قوله تعالى (وأذان من الله ورسوله الى الناس يوم الحج الاكبر) الخ فقرن تعالى اسم نبيه باسمه في تبليغ أحكامه وتنفيذها

(٣) قال تعالى في وصف كملة المؤمنين من الآية (١٦ — ولم يتخذوا من دون الله ولا رسوله ولا المؤمنين وليجة) أي دخيلة وبطانة من غيرهم يطلعونهم على الاسرار ، ولهذا أشرك المؤمنين في هذا لانه يتعلق بحقوقهم في ولاية بعضهم لبعض دون أعدائهم ، ويضرهم أن يكون بينهم ولائج ودخائل من غيرهم . دون

ما قبله الذي هو تشريع هو حق الله تعالى وتبليغ وتنفيذ : هما حق رسوله ﷺ في عهده ، وورثته من بعده

(٤) قوله تعالى (٢٤ قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم واخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم واموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب اليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فتربصوا حتى يأتي الله بأمره) فجعل كمال الايمان مشروطا بتفضيل حب الله تعالى ورسوله على كل ما يحب فى هذا العالم من الناس والمصالح والمنافع ، ولكنه جعل الجهاد في سبيل الله وحده دون رسوله لانه عبادة يتقرب بها الى الله وحده وليس للرسول ﷺ أدنى حق ولا شركة مع الله عز وجل في عبادته

(٥) قوله تعالى في صفات أهل الكتاب الذين شرع قتالهم من الآية (٢٩ — ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله) على القول بأن « رسوله » في الآية هو الفرد الاكمل خاتم النبيين وهو قول للمفسرين يقابله أن المراد به رسوله تعالى اليهم وهو موسى (ع . م) لليهود وعيسى (ع . م) للنصارى

وهل العطف في الآية يدل على أن الرسول قد أعطاه الله حق التحريم من تلقاء نفسه أم حظه منه التبليغ عن الله تعالى نصاً ولو في غير القرآن أو استنباطا ؟ اختلف علماؤنا في التشريع الدنيوي في هذه المسألة دون الديني المحض فذهب بعضهم الى الاول وجعلوا منه تحريمه ﷺ للمدينة كمكة أن يصاد صيدها أو يختلى خلاها الخ وذهب آخرون الى الثاني ومنهم الامام الشافعي وقد بينا هذه المسألة في موضع آخر بالتفصيل

(٦) قوله تعالى في سبب منع المنافقين أن تقبل منهم نفقاتهم من الآية ٥٤ (إنهم كفروا بالله ورسوله) ومثله في سبب عدم انتفاعهم باستغفار النبي ﷺ من الآية (٧٩ ـ ذلك بأنهم كفروا بالله ورسوله) وهذا ظاهر فان الدين انما يكون بالجمع بين الايمان بالله والايمان برسوله وما جاء به ، وأنى يعرف الله وما يرضيه من عبادته إلا من طريق رسله وما أوحاه اليهم ؟

(٧) قوله تعالى في الذين لمزوا النبي ﷺ أي عابوه في قسمة الصدقات وكانوا يرضون اذا أعطوا ويسخطون اذا منعوا (٥٩ ولو أنهم رضوا ما آتاهم الله

ورسوله وقالوا حسبنا الله سيؤتينا الله من فضله ورسوله ، إنا الى الله راغبون) والجمع فيها بين اسم الله واسم رسوله في موضعين أحدهما الرضاء بما آتيا وأعطيا بالفعل ، والثاني الرجاء فيما يؤتيان من بعد ، فأما العطاء من الله تعالى فهو انه هو الذي أنعم وينعم بالغنائم في الحرب وهو الذي شرع قسمتها بين الغانمين ، وجعل خمسها فيما تقدم في أول الجزء العاشر في مصالح المسلمين ، ومنها مواساة الفقراء والمساكين ، وهو المنعم بسائر الاموال ، والذي فرض فيها ماتقدم تفصيله من الصدقات ، وأما الرسول ﷺ فهو القاسم للغنائم والصدقات باعطائها لمستحقيها بالحق والعدل ، ولذلك خص الله تعالى في الآية بالفضل ، وفيها من أصول التوحيد ، والتمييز بين ما لله وحده وماله وللرسول أمران (أحدهما) أن المحسب الكافي للعباد هو الله وحده ، ولهذا أرشدهم أن يقولوا « حسبنا الله » ولم يقل ورسوله كما قال في الايتاء (وثانيهما) ان توجه المؤمن فيما يرغبه ويرجوه من الرزق وغيره يجب أن ينتهي الى الله تعالى وحده وهو نص قوله (إنا إلى الله راغبون) ومنه (والى ربك فارغب) أي دون غيره (راجع ص ٤٨٨ ج ١٠)

(٨) قوله تعالى (٦٢ يحلفون بالله لكم ليرضوكم ، والله ورسوله أحق أن يرضوه إن كانوا مؤمنين) فمقتضى الايمان الذي لا يصح بدونه تحري المؤمن إرضاء الله ورسوله في المرتبة الاولى ، وإرضاء المؤمنين بما يتعلق بمعاملتهم في المرتبة الثانية التابعة للاولى ، ذلك بأن كل ما يرضي الله عز وجل يرضي رسوله ، وكل ما يرضي رسوله ﷺ يرضيه ، فهما متلازمان ، وأما المؤمنون فقد يرضي بعضهم مالا يرضي الله ورسوله لجهله بما يرضيهما أو غفلته عنه أو اتباعه لهواه فيه . ومنه في موضوع الآية ان بعض المؤمنين من الصحابة الكرام ربما كانوا يصدقون أولئك المنافقين الذين يحلفون لهم بأنهم صادقون في اعتذارهم عما اتهموا به في غزوة تبوك ، لانهم لا يعلمون ما يعلمه الله تعالى من باطن أمرهم وما أعلم به رسوله منه ، ولذلك قال في آية أخرى (يحلفون لكم لترضوا عنهم فان ترضوا عنهم فان الله لا يرضى عن القوم الفاسقين)

(٩) قوله تعالى (٦٣ ألم يعلموا أنه من يحادد الله ورسوله فان له نار جهنم)

الآية وهذه مقابلة لما قبلها فان من يحادد الله أي يعاديه يعادي رسوله كما أن من يرضي أحدهما يرضي الآخر ، ومن ثم كان الجزاء واحداً

(١٠) قوله تعالى في المنافقين الذين كانوا يخوضون في مسألة غزوة تبوك ويهزؤن بمحاولة غزو الروم ورجاء الرسول ﷺ النصر عليهم وبما كان وعد به أصحابه من الظفر بملكهم (٦٥ ولئن سألتهم ليقولن انما كنا نخوض ونلعب . قل أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزئون) ؟ فحكم الاستهزاء بالله وآياته الكفر ، وهو حكم الاستهزاء برسوله ، لان الله تعالى هو الذي وعد رسوله بالنصر وأمره بالغزو ، ورسوله انما بلغ عنه آياته ووعده في ذلك .

(١١) قوله تعالى (٩٠ وجاء المعذرون من الاعراب ليؤذن لهم وقعد الذين كذبوا الله ورسوله) الآية . معنى كذبهم إياهما إظهار الايمان بهما كذباً وخداعاً ومن كذب الرسول في دعوى الايمان فقد كذب الله ـ وان لم يشعر بذلك ـ واستحق الجزاء الذي في الآية

(١٢) قوله تعالى في أصحاب الاعذار الصادقة في التخلف عن الجهاد الواجب (٩١ ليس على الضعفاء ولا على المرضى ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون حرج إذا نصحوا لله ورسوله) فاشترط لقبول عذرهم في القعود عن القتال النصح لله ورسوله في كل قول وعمل يقدرون عليهما في مقاومة الاعداء ومساعدة المؤمنين وغير ذلك فالنصح من أعظم شعب الايمان ، وراجع تفسير الآية

(١٣) قوله تعالى في المعتذرين من المنافقين عن الخروج إلى تبوك (٩٤ يعتذرون اليكم إذا رجعتم اليهم قل لا تعتذروا لن نؤمن لكم قد نبأنا الله من أخباركم ، وسيرى الله عملكم ورسوله) الآية . والمراد من ذكر رؤية الرسول لها إعلامهم انه هو الذي سيعاملهم بمقتضاها في الدنيا ، دون أقوالهم في الاعتذار عن تخلفهم وغيره من سيئاتهم . وأما رؤية الله تعالى لها فهي التي عليها مدار الجزاء في الآخرة كما صرح به في تتمة الآية (ص ٣ ج ١١) وفي معناها قوله تعالى (١٠٥ وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون) هذه الآية حث على العمل النافع للدنيا والآخرة وإنما ذكر المؤمنون هنا بعد ذكر الله ورسوله لتذكير العاملين

بأن الله يرى أعمالهم وهو الذي يجازيهم عليها فيجب عليهم الاحسان والاخلاص له والوقوف عند حدود شرعه فيها. وبأن رسوله يراها ويعاملهم بمقتضاها ـ وهذا خاص بحال حياته ﷺ ـ وهو الشهيد عليهم فيها عند الله تعالى ليتحروا أن يشهد لهم لا عليهم ـ ثم لتذكيرهم بان المؤمنين يرونها فينبغي لهم أن يتبعوا فيها سبيلهم ويتحروا فيها مايوافق المصلحة العامة التي يشتركون فيها وجماعة المؤمنين شهداء بعضهم على بعض وشهادتهم مقبولة عند الله تعالى (راجع تفسير الاية في ص ٣٣ ج ١١)

(١٤) قوله تعالى (٩٩ ومن الاعراب من يؤمن بالله واليوم الآخر ويتخذ ما ينفق قربات عند الله وصلوات الرسول) فهذا ضرب من اقتران اسم الرسول ﷺ باسم الله تعالى في موضوع واحد مع الفصل فيه بين ما له تعالى وما لرسوله . فالذي لله عز وجل من هذه العبادة هو قصد القربة وابتغاء المرضاة والمثوبة ، والذي للرسول ﷺ هو طلب صلواته أي أدعيته إذ كان يدعو المتصدقين كما بيناه في تفسير الآية (ص ١١ ج ١١)

وكل هذه الآيات مما يفند دعوى بعض الملاحدة ان دين الاسلام هو القرآن وحده دون سنة رسوله ، وكذلك ماترى في الفصلين الآتيين بعده

﴿ الفصل الثاني ﴾

﴿ في علو مكانته وعناية الله تعالى به وتكريمه وتأديبه وتكميله إياه ﴾

(وفيه ١١ منقبة بالاجمال وأضعاف ذلك بالتفصيل)

(المنقبة الاولى) جعل الايمان به وطاعته وحبه وارضائه مقرونة في المرتبة والثناء والثواب بما له عز وجل من ذلك على عباده — وجعل ما يقابل ذلك من الكفر به وعصيانه وبغضه واغضابه وإيذائه مقرونة في الحظر والكفر والوعيد واستحقاق العذاب الاليم بالكفر بالله وعصيانه الخ وتجد ما في السورة من الامرين مفصلا في الفصل الاول الذي قبل هذا ، فهي بضع عشرة لا منقبة واحدة

(الثانية) إنزال الله سكينته عليه وتأييده بجنوده من الملائكة في يوم حنين

حين انهزم المؤمنون وولوا مدبرين كما هو مبين في الآيتين ٢٥و٢٦ (ويراجع تفسيرهما في ص ٢٤٣ ـ ٢٤٨ ج ١٠)

(الثالثة) نصر الله له عند خروجه للهجرة مع صاحبه الصديق ومعيته الخاصة لهما وانزال سكينته عليهما وتأييدهما بجنوده من الملائكة ، وفيها عدة مناقب كما تراه في آية الغار (٤٠) وتفسيرها البديع من ص ٤٢٦ ـ ٤٥٩

(الرابعة) إتمام الله تعالى نوره به كما تراه في الآية ٣٢ وقال بعض المفسرين إنه هو ﷺ نور الله المراد من الآية فانظر تفسيرها في ٣٨٣ ج ١٠

(الخامسة) قوله تعالى بعدها (٣٣ هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله) الآية وهي مشتملة على عدة مناقب فانظر تفسيرها في ص ٣٨٨ ـ ٣٩٤ ج ١٠

(السادسة) قوله تعالى له (٤٣ عفا الله عنك لم أذنت لهم) الآية وفيها من لطفه تعالى به وتكريمه إياه ان أعلمه بعفوه عنه قبل اعلامه بخطأ الاجتهاد في اذنه لبعض المنافقين بالتخلف عن الخروج معه الى تبوك . وتجد في تفسيرها تحقيق الكلام في ذنوب الانبياء عليهم السلام [ص ٤٦٤]

[السابعة] إعلامه تعالى إياه بأن استغفاره للمشركين وعدمه سيان في جانب حكم الله فيهم وهو انه لا يغفر للمصرين على نفاقهم . وذلك في الآية [٧٠] وهذا تقييد لنفع الدعاء والشفاعة

(الثامنة) اعلامه تعالى بأنه ليس من شأن النبي من حيث هو نبي ولا من شأن المؤمنين أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولي قربى بعد العلم بموتهم على كفرهم بعد ان فعلوا ذلك . وهذا نص الاية ١١٣ وهي ارشاد من الله لهم فيما يجب أن يقفوا عنده من مودة القرابة والنسب (راجع ص ٥٦ ج ١١)

(التاسعة) نهيه تعالى إياه عن الصلاة على المنافقين أو القيام على قبورهم عند الدفن بعد صلاته على زعيمهم الاكبر الأكفر عبدالله بن أبي بن سلول والقيام على قبره عند دفنه تكريما لنجله المؤمن الصادق وتأليفا لقومه وكان أكثر المنافقين منهم ، وهذا النهي يتضمن الانكار والتأديب والحد الذي يجب الوقوف عنده في معاملة المنافقين ، وسيأتي تفصيله

[العاشرة] نهيه عن الاعجاب بأموالهم وأولادهم وإعلامه بأن الله يعذبهم في الدنيا قبل الآخرة، وهو في الآيتين ٥٥ و ٨٥ على القول بأن الخطاب فيهما له ﷺ ويجوز أن يكون عاما لكل من يسمع القرآن أو يقرؤه ، وهو على كل تقدير تأديب من الله تعالى وتكميل للنبي والمؤمنين بالسمو بانفسهم عن تعظيم شأن قوة الاموال وعزة الاولاد وزينتهما يكونان للمحرومين من قوة الايمان وعزته وهما اللتان لا يعلوهما شيء ـ وتعليمهم ما لم يكونوا يعلمون من أن النعم الصورية الدنيوية لا تتم لاهلها النعمة بها الا باطمئنان القلوب بنعمة الايمان ، وتزكي الانفس باعمال الاسلام، وان السعادة الحقيقية انما هي سعادة النفس بالعلم والعرفان وعلو الاخلاق، ومن متمماتها الدنيوية كثرة الاموال والاولاد ، وان هؤلاء المنافقين بفقدهم لهذه النعم الباطنة ، لا سعادة لهم بتلك النعم الظاهرة ، وانما هي مغصات لهم في الدنيا نفسها بما بيناه في تفسير الآيتين [في ص ٤٨٤ و ٥٧٤ ج ١٠]

(الحادية عشرة) توبته تعالى عليه وعلى خيار أصحابه المؤمنين وهذا منتهى التطهير والتزكية لهم من ربهم عز وجل في اثر غزوة تبوك التي أرهقوا فيه أشد العسر، وقاسوا أعظم الجهد ، من الجوع والظمأ والنصب، ومفارقة موسم الرطب ، في شدة الحر ، وقلة الزاد والظهر ، [الرواحل] فكان لابد أن يعرض لهم بعض الهفوات الجديرة برأفة الله ورحمته في جانب تلك الحسنات ، التي أشير الى مضاعفة أجرها فيما يلي الاخبار بالتوبة عليهم من الآيات ، وهو قوله عز وجل [١١٧ لقد تاب الله على النبي والمهاجرين والانصار الذين اتبعوه في ساعة العسرة من بعد ما كاد يزيغ قلوب فريق منهم ثم تاب عليهم انه بهم رءوف رحيم] ثم ذكر فيما يليها توبته على الذين خلفوا من هؤلاء الصادقين عن تبوك بغير عذر [حتى إذا ضاقت عليهم الارض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم] الخ

والتوبة من العبد إلى ربه هي رجوعه اليه عن كل ما لا يرضيه وتحريه ما يرضيه وهي تختلف باختلاف حال التائبين فيما يتوبون عنه حتى ان منهم من يتوب اليه ويستغفره من الغفلة ، ومن التقصير في استكمال الجهد في الطاعة

وأما التوبة من الرب على عبده فهي قبول توبته ، والتجاوز عن ذنبه أو هفوته ،

أوعن تقصيره في عبادته والخطأ في الاجتهاد في إقامة سنته، وتنفيذ شريعته، وعطفه عليه بما يكون مزيد كمال في إعلاء درجته ، ولذلك قال بعض المحققين : ان التوبة هي أول درجات الطاعة والمعرفة وهي آخر درجات الكمال في الايمان وثمراته ، وانها كالطهارة في الصلاة لابد من استمرارها من اول سن التكليف إلى آخرها [راجع ص ٦٤ ـ ٧٢ ج ١١]

(الفصل الثالث)

﴿ في فضله ﷺ على أمته، وحقوقه الواجبة عليها، وحكم إخلالها بها وتقصيرها فيها ﴾

﴿ وهي ثلاثة أقسام ﴾

(القسم الاول في صفاته الخاصة وفيه بضع مزايا وفضائل)

(الاولى) وصف الله تعالى إياه بانه صلوات الله وسلامه عليه في الا ية ٦١ (أذن خير) في الرد الحكيم على قول بعض المنافقين (هو أذن) يعنون انه يصدق كل مايقال له فيسهل عليهم خداعه ، وقد فسر وصفه بانه اذن خير بقوله تعالى [يؤمن بالله ويؤمن للمؤمنين] ووجه الرد عليهم بهذا انه ﷺ انما يؤمن بالله ويصدق ما يوحيه اليه في شأن المنافقين وغيرهم، وهو التصديق القطعي اليقيني ، ويليه انه يصدق المؤمنين بالله تعالى وبرسالته تصديق ثقة بهم واثتمان لهم فيما هو خير في نفسه، وخير للناس حتى المنافقين منهم، لانه لايسمع سماع قبول الا ماكان حقا وخيراً ،دون الكذب والغيبة والنميمة ـ راجع تفسيرها في ص ٥١٦ ج ١٠

[الثانية] وصفه تعالى اياه بعد ما ذكر بقوله [ورحمة للذين آمنوا منكم] أي بما كان سبباً لهدايتهم وإسباغ الله عليهم سعادة الدنيا والآخرة بايمانهم به وعملهم بما دعاهم اليه من أسبابها ، دون المنافقين المكذبين أو المرتابين فيها ، وأما قوله تعالى في سورة الانبياء [وما أرسلناك الا رحمة للعالمين] فهو في معنى إرساله للناس كافة بما هو سبب الرحمة والسعادة . وما يأتي قريباً من وصفه بانه رحيم بالمؤمنين فهو معنى آخر وستعرف الفرق بينهما

[الثالثة] وصفه في آية ١٠٣ بتطهير المؤمنين وتزكيتهم بما يأخذه منهم من الصدقات. وذلك انه صلوات الله وسلامه عليه لم يكن مثله في تبليغه لفرض الصدقات والنفقات ، وفي أخذه لها وقسمتها على مستحقيها كمثل الملوك والحكام الذين يجعلون المفروض على الناس من الاموال أتاوات وضرائب قهرية يؤدونها كما يؤدون سائر المغارم، ويعتقدون أنها تنفق بحسب أهواء الملوك والحكام، ويكون لهم منها أكبر نصيب بغير استحقاق ، وإنما كان ﷺ يبين للمؤمنين حكمة ما فرضه الله تعالى عليهم ، وان فيه خير الدنيا وسعادة الآخرة لهم في أفرادهم وجماعتهم ، وكان يقسمه بين مستحقيه بالعدل ، ويحرم باذن الله على نفسه وعلى أهل بيته أخذ شيء منه ، فبهذا وذاك أسند الله تعالى اليه فعل التطهير والتزكية لهم ، وهو داخل في حكمة بعثته في قوله [يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة] وتجد التفصيل في تفسير الآية [ص ٢٤ ج ١١]

[الرابعة] وصف دعائه للمتصدقين بعد ما ذكر بأنه سكن لهم تطمئن به قلوبهم ، وترتاح إليه أنفسهم ، ويثقون بقبول الله لصدقاتهم ، ونقول ان كل مؤمن متصدق مخلص يناله حظ من دعائه ﷺ المتصدقين الى يوم القيامة ، ولكن لم يرد في القرآن ولا في السنة ولا في سيرة الصحابة والتابعين ان النبي ﷺ يطلب منه بعد وفاته الدعاء لأحد

[الخامسة] وصفه تعالى إياه بما امتن به على قومه من قوله في خاتمة السورة [١٢٨ لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم] فاثبت له شدة الحب لهم والحرص على هدايتهم وسعادتهم ، وانه يعز ويشق عليه أن يصيبهم العنت والارهاق في دينهم أو دنياهم

[السادسة] وصفه بعد ما تقدم بقوله [بالمؤمنين رءوف رحيم] وهاتان الصفتان من أعظم صفات الربوبية غير الخاصة بالله عز وجل الافي كمالها ، ورأفته ورحمته ﷺ بالمؤمنين غير ارسال الله تعالى إياه رحمة لهم خاصة ، وغير ارساله رحمة للناس كافة ، فان رحمته بهم من صفات نفسه الشريفة القدسية التي ظهر أثرها في سياسته ومعاشرته لهم ، وتأديبه إياهم ، وتنفيذ حكم الله تعالى فيهم ، كما ترى في هذه

السورة كغيرها، وشواهد سيرته ﷺ في تفسيرها، فتأمل خطبته ﷺ في الانصار في أثر إنكار بعض شبانهم وعواهم حرمانه إياهم من غنائم حنين [ص ٢٥٨ - ٢٦٠ ج ١٠] فهي العجب العجاب، والكمال الذي لم يتم لبشر كما تم له عليه الصلاة والسلام

وأما ارساله رحمة للعالمين والمؤمنين فهو بيان لحكمة رسالته وفوائدها فيما اشتملت عليه من الحق والعدل والخير التي هي أسباب رحمة الله ومثوبته ورضوانه لمن اهتدى بها كما تقدم بيانه في محله

﴿ القسم الثاني فيما يجب له على أمته وفيه خمس واجبات ﴾

[الاول] وجوب حبه ﷺ بالتبع لحب الله تعالى وفي الدرجة التي تلي درجته في ثمرة الايمان، وتفضيل نوع حبها على كل ما يحب بمقتضى الفطرة ومصالح الدنيا، فراجع بيان ذلك في تفسير الآية (٢٥) تجد فيه مالا تجد مثله في تفسير آخر [ص ٢٢٥ ج ١٠]

[الثاني] وجوب تحري مرضاته بالتبع لمرضاة الله عز وجل في الآية ٦٢

[الثالث] وجوب طاعته بالتبع لطاعة الله في صفات المؤمنين من الآية ٧١

[الرابع] وجوب النصح له بالتبع للنصح لله عز وجل في صفات المعذورين في التخلف عن القتال من الآية (٩١)

وهذه الواجبات له قد ذكرت في الفصل الاول من هذا الباب في سياق آخر

[الخامس] وجوب نصره كما يؤخذ من آية [٤٠ إلا تنصروه فقد نصره الله] ويؤيدها ما يأتي في القسم الثالث من حظر التخلف عنه

﴿ القسم الثالث فيما يحظر عليهم من ايذاء وتقصير في حقه وهو خمسة محظورات ﴾

[الاول] حظر إيذائه فداؤه أبي وأمي ونفسي والوعيد عليه في الآية [٦١]

[الثاني] حظر محادته أي معاداته والوعيد عليها في الآية [٦٣]

[الثالث] الكفر الصريح بالاستهزاء به في الآية [٦٥]

[الرابع] حظر القعود عن الخروج معه للجهاد في الآيتين [٨١ و ٩٠]

[الخامس] حظر تخلفهم عنه والرغبة بانفسهم عن نفسه في الآية [١٢٠] وهذا تعبير بليغ جدا يتضمن ان كل من يصون نفسه عن جهاد وعمل بذل الرسول ﷺ نفسه فيه فهو مفضل لنفسه على نفسه الكريمة في عهده ، ويمكن أن يقال ذلك فيمن بعده وان كان الفرق بين الحالين ظاهراً من ناحية ملاحظة ذلك وعدمها ، ومن ناحية قيام الحجة على من كان معه بما لا تقوم به على من لم يكن معه فضلا عن بعده . وإنما نعني بالامكان انه ينبغي لكل مؤمن أن يتأسى به ﷺ في بذله ماله ونفسه لله والجهاد في سبيل الله بقدر إمكانه [لقد كان لكم في رسول الله اسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا] فراجع تفسير الاية [ص ٧٤ ج ١١]

الباب الثالث

في دين الاسلام وما في السورة من حججه وأصوله وصفات أهله وفيه ٣ فصول

﴿ الفصل الاول في حجج الاسلام من البشارات والنذر والاخبار بالغيب وهي عشر ﴾

(الاولى) قوله تعالى للمشركين في الآية الاولى (واعلموا انكم غير معجزي الله وأن الله مخزي الكافرين)

(الثانية) قوله (١٤ قاتلوهم يعذبهم الله بايديكم ويخزهم وينصركم عليهم)

(الثالثة) قوله للمؤمنين (٢٨ وان خفتم عيلة فسوف يغنيكم الله من فضله)

(الرابعة) بشارته بخذل اليهود والنصارى فيما يحاولون من اطفاء نوره تعالى (الاسلام) ووعده باتمامه واظهار دينه على الدين كله وذلك في الآيتين (٣٢ و ٣٣ يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ـ إلى قوله ـ ولو كره المشركون)

(الخامسة) قوله تعالى (٦٤ يحذر المنافقون أن تنزل عليهم سورة تنبئهم بما في قلوبهم)

(السادسة) قوله (٦٥ ولئن سألتهم ليقولن إنما كنا نخوض ونلعب) الآية ولذلك كله ولما سيأتي قال (٧٨ ألم يعلموا أن الله يعلم سرهم ونجواهم وأن الله علام الغيوب)

(السابعة والثامنة والتاسعة) قوله (٩٤ يعتذرون اليكم إذا رجعتم اليهم قل لا تعتذروا لن نؤمن لكم قد نبأنا الله من أخباركم) الآية وقوله (٩٥ سيحلفون

بالله لكم اذا انقلبتم اليهم لتعرضوا عنهم ـ وقوله ـ (٩٦ يحلفون لكم لترضوا عنهم) الآيات وهي أظهر في خبر الغيب من قوله (٥٦ ويحلفون بالله انهم لمنكم) وقوله (٦٢ يحلفون بالله لكم ليرضوكم) لاحتمال أن يكون الاخبار بهذين الحلفين بعد وقوعهما لبيان غرضهم وما في باطنهم وهو عين تعليل حلفهم في الاية ٩٦

(العاشرة) قوله (١٠١ وممن حولكم من الاعراب منافقون ومن أهل المدينة مردوا على النفاق لا تعلمهم نحن نعلمهم سنعذبهم مرتين) أي في الدنيا

وقد تم كل ذلك وصدق وعد الله ووعيده وخبره

وفي السورة أخبار أخرى بالغيب يحتمل أن تكون من باب طبيعة العمران وسنن الله في البشر وترى مثاله في الفصل الثالث من الباب الأول

(الفصل الثاني)

﴿ في صفة الاسلام ومدخله واهم أصول التشريع فيه ـ وفيه عشرة أصول ﴾

(الاصل الاول) أن دين الاسلام هو نور الله تعالى العام، وهداه الكامل التام، الذي نسخ به ما تقدمه من الاديان ، ووعد الله عز وجل باتمامه ، وخذلان مريدي إطفائه ، وذلك نص الآيتين (٣٢ و ٣٣) وتجد في تفسيرهما [من ص٣٨٣ـ ٣٩٤ج١٠] ما لا تجد مثله في شيء من كتب التفسير الاخرى من إظهاره على جميع الاديان، بالحجة والبرهان ، والهداية والعرفان، والعلم والعمران، والسيادة والسلطان،

(الاصل الثاني) مدخل الاسلام ومفتاحه وما يتحقق به وهو قوله تعالى في المشركين (٥ فان تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم) ويؤكدها قوله (١١ فان تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فاخوانكم في الدين) والمراد التوبة من الشرك وتحصل بالاقرار بالشهادتين ، وتجد في تفسيرهما خلاف العلماء في كفر تارك الصلاة ومانع الزكاة من أفراد المسلمين (ص ١٦٨ و ١٨٧ ج ١٠)

(الاصل الثالث) بناء الاسلام على العلم الصحيح دون التقليد الذي ذمه القرآن في آيات كثيرة وشنع به على المشركين . ودليله في هذه السورة قوله تعالى في تعليل الامر باجارة المشرك الحربي في دار الاسلام ليسمع القرآن (٦ ذلك بأنهم

قوم لايعلمون) وقوله في الآية (١١ ونفصل الآيات لقوم يعلمون) وأصرح منهما قوله في مقلدة أهل الكتاب (٣١ اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله) مع تفسير النبي ﷺ ذلك باتباعهم إياهم فيما يحلون لهم ويحرمون عليهم [ص٣٦٣ ج١٠]

[الاصل الرابع] ان التكليف العام من العبادات والحلال والحرام الديني لا يثبت الا بنص قطعي وهو ما كان عليه السلف الصالح وأصل مذهب الحنفية وشاهده في هذه السورة قوله تعالى [١١٥ وما كان الله ليضل قوما بعد إذ هداهم حتى يبين لهم مايتقون] وبيانه في تفسيرها [ص٦١ ج١١]

(الاصل الخامس) جهاد المشركين في سبيل الله وعدم السماح لهم بالاقامة في بلاد العرب أو يدخلوا في الاسلام وهو في آيات منها الآية التي سموها آية السيف وهي الخامسة (فاذا انسلخ الاشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم) وهي غير ناسخة لآيات العفو والصفح والاعراض عن المشركين كما قيل وترى في تفسيرها تحقيق الآيات الناسخة والمنسوخة (ص١٦٦ ج ١٠) وستأتي أحكام القتال وقواعده في الباب الرابع الآتي

(الاصل السادس) جعل الغاية من قتال أهل الكتاب أداء الجزية لنا بشرطها إلا ان يدخلوا في الاسلام . وهو في الاية ٢٩ وستذكر في أحكام القتال.

[الاصل السابع) المساواة بين الرجال والنساء في ولاية الايمان المطلقة وصفاته الشخصية والعامة المشتركة في قوله(٧١ والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويطيعون الله ورسوله) ويدخل في إطلاق الولاية ولاية النصر والدفاع عن الامة والبلاد ، إلا انه لايجب على النساء القتال الا في حال النفير العام (ص ٥٤١ ج ١٠)

(الاصل الثامن) المساواة بين الرجال والنساء في جميع نعيم الآخرة تبعاً للمساواة في التكليف ، وهو نص قوله تعالى(٧٢ وعد الله المؤمنين والمؤمنات جنات)الخ

(الاصلان التاسع والعاشر) وجوب طلب العلم والتفقه في الدين ـ ووجوب بث العلم مقرونا بالوعظ والانذار الذى يرجى تأثيره النافع ـ وهما في الآية ١١٦ وفي السورة من أصول الايمان عقيدة البعث وجزاء المؤمنين والكافرين والمنافقين

في آيات كثيرة كسائر القرآن (تراجع الآيات ٣ و ١٧ و ١٨ و ١٩ و ٢١ و ٢٢ و ٣١ و ٤٤ و ٤٥ و ٤٩ و ٦١ و ٦٣ و ٦٨ و ٦٩ و ٧٤ و ٨١ و ٩٥

وفائدة هذا التكرار أن ترسخ هذه العقيدة في قلوب المتعبدين بتلاوة القرآن بكثرة تذكرها في المواضع المختلفة من ذكر الاعمال التي يترتب عليها ذلك الجزاء وان من ضروب إعجاز القرآن أن يرد فيه المعنى الواحد في العشرات أو المئات من المواضع ، ولا يمل تكراره القاريء ولا السامع

﴿ الفصل الثالث ﴾

(في آيات الايمان الصادق وصفات أهله وطبقاتهم وفيه ٣٢ شاهداً)

(الشاهد الاول) آية صدق الايمان المميزة بين الصادقين والمنافقين ومرضى القلوب التي تظهر بالامتحان وهو الجهاد وحفظ أسرار الملة والدولة أن يفضى بها إلى وليجة أو بطانة من دون المؤمنين ومنهم جواسيس الاعداء . وهو نص الآية ١٦ (ص ٢٠٢ ج ١٠)

(٢) آية صدق الايمان وما ينافيه من ولاية الآباء والاخوان الذين يستحبون الكفر على الايمان في الآية ٢٣ (ص ٢٢٣ ج ١٠)

(٣) آية صدق الايمان تفضيل حب الله ورسوله والجهاد في سبيله على حب الآباء والابناء والاخوان والعشيرة والمال والتجارة والمساكن المرضية . وذلك مفصل في الآية ٢٤ وتجد من بيان معانيها في تفسيرها مالا تجد مثله في شيء من كتب التفسير (ص ٢٢٥ ـ ٢٤٢ منه)

(٤) أخوة الاسلام الدينية في الآية ١١ وتفسيرها في (ص ١٨٧ و ١٩٠)

(٥ و ٦) عمارة مساجد الله حسا ومعنى وعدم خشية أحد إلا الله في الآية ١٨

(٧) ولاية بعض المؤمنين لبعض ذكوراً وإناثا (٨) الامر بالمعروف والنهي عن المنكر (٩) طاعة الله ورسوله ـ في الآية ٧١ *)

*) وفي هذه الآية اقامة الصلاة وايتاء الزكاة وهما أهم أركان الاسلام العملية كما تقدم في ذكر أصوله.

(١٠) صفات المؤمنين المميزة لهم من المنافقين في المقابلة بين الآيتين ٤٤ و٤٥ (ص ٤٦٨ و٤٦٩) وبين الآية ٦٨ وما بعدها (ص ٥٣٣) والآية ٧١ وما بعدها (ص ٥٤١)والآية ٨٦ وما بعدها (ص ٥٨١) والآية ٨٨ وما بعدها (ص ٥٨٢) وبين الآيتين ٩٨ و٩٩ (ص ٩-١٢ ج ١١) وبين الآيات ١٢٤ - ١٢٧ (ص ٨٢ منه)

(١١) طبقات خيار المؤمنين الثلاث: المهاجرين والانصار والذين اتبعوهم باحسان في الآية المتممة المائة (ص ١٣ منه)وفي الآية ١١٧ (ص ٦٤ منه)

(١٢) المؤمنون الذين خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا في الآية ١٠٢ (ص ٢٠ منه) والمؤمنون الذين أرجأ الله قبول توبتهم في الآية ١٠٦ (ص ٣٥ منه)

(١٣) الاخلاص في الانفاق في سبيل الله ابتغاء القربات عند الله ، وصلوات الرسول أي أدعيته - الآية ٩٩

(١٤) العمل النافع للدنيا والدين الذي يرضي الله ورسوله والمؤمنين - الآية ١٠٥

(١٥) حب التطهر من الادران الحسية والارجاس المعنوية - الآية ١٠٨

(١٦) بيع المؤمنين أنفسهم وأموالهم لله تعالى بالجنة في الآية ١١١

(١٧-٢٥) صفات هؤلاء المؤمنين : التوبة. العبادة الخالصة . الحمد لله على كل حال . السياحة . ركوع الخضوع . سجود الخشوع . الامر بالمعروف والنهي عن المنكر ، والحفظ لحدود الله في الآية ١١٢

(٢٦) آية المؤمنين عدم الاستغفار للمشركين ولو كانوا أولي قربى - الآية ١١٣

(٢٧) تقوى الله عز وجل (٢٨) ملازمة الصادقين - الاية ١١٩

(٢٩) التفقه في الدين (٣٠) إنذار الناس وتعليمهم - الآية ١٢٢

(٣١) الغلظة في القتال على الكفار المحاربين - الآية ١٢٣

(٣٢) زيادة الايمان بنزول القرآن في الآيتين ١٢٤ و١٢٥

الباب الرابع

(في المسائل المالية والعسكرية والسياسية ، ومافيها من احكام القتال والعهود ، وفيه ٣ فصول)

الفصل الاول في احكام الاموال

(تقدم في سورة الانفال أحكام الغنائم وما في معناها من أموال الحرب وفرض الخمس فيها ومصارفه وحق آل الرسول ﷺ فيه وحكمته وما للامة فيه من المصلحة، وبيان أنواع الاموال الشرعية في الاسلام وامهات مقاصدها في الدولة الاسلامية . فما في هذه السورة متمم لما قبله في الاموال كما انها متممة لما فيها من احكام القتال وشؤون المنافقين والكفار

والكلام في هذا الموضوع ثلاثة أقسام (١) المسائل الدينية والاجتماعية في الاموال (٢) أنواع الاموال ومصارفها (٣) فوائد اصلاح الاسلام المالي للبشر

(القسم الاول)

(في مكان انفاق المال من الايمان، والبخل به من النفاق، وفيه ١٠ مسائل)

(المسألة الاولى) كون الزكاة المعينة أحد أركان الاسلام لا تقبل دعواه من الكفار بدون التزامها، ولا تحصل اخوته الدينية الا بأدائها ، واعتبار ما نعيها من الجماعات مرتدين تجب مقاتلتهم . وفي الافراد خلاف تقدم تحقيق الكلام فيه . ونص ذلك في قوله تعالى (٥ ـ فان تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم) وقوله (١١ ـ فان تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فاخوانكم في الدين) ويؤكده عد الزكاة كالصلاة من صفات المؤمنين الراسخة في آية (٧١ والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض) الخ

(م ٢) كون بذل الاموال في سبيل الله آية الايمان الصحيح وقوام الدين، ومن شواهده الآيتان المشار اليهما آنفا في فريضة الزكاة ، ومنها الآية (٢٠ الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم أعظم درجة عند الله) إلى قوله في الاية (٢٢) إن الله عنده أجر عظيم * ومنها الوعيد الشديد لمن أمواله وتجارته وسائر حظوظه أحب اليه من الله ورسوله وجهاد في سبيله، وهو في

الآية (٢٤) ومنها قوله تعالى في آية النفير العام (٤١ انفروا خفافاً وثقالا وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله) وقوله (٤٤ لا يستأذنك الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم) ويتم معناها الآيتان بعدها. ومنها قوله تعالى (٥٥ فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم إنما يريد الله ليعذبهم بها في الحياة الدنيا)

(م ٣) كون البخل والامتناع عن الانفاق في سبيل الله آية الكفر والنفاق فمن شواهده عدم قبول نفقة المنافقين وكون أموالهم بلاء ووبالا عليهم في الدنيا والاخرة في الآيات ٥٣ و ٥٤ و ٥٥ (ومنها) لمز المنافقين للنبي ﷺ في قسمة الصدقات للطمع في المال في الاية ٥٨ (ومنها) وصف المنافقين بالبخل وقبض الايدي عن الانفاق في قوله (٦٨ المنافقون والمنافقات بعضهم من بعض ـ إلى قوله ـ ويقبضون أيديهم) ويؤكدها ضرب المثل لهم في الاية ٧٠ بعدها بالذين من قبلهم من المغرورين بالقوة والمال، ووصف المؤمنين بعدها بصفات منها (إيتاء الزكاة)

(ومنها) قوله تعالى (٧٥ ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله لنصدقن) الاية والوعيد الشديد على البخل في الايات التي بعدها (ومنها) لمز المنافقين للمتطوعين من المؤمنين في الصدقات في الاية ٧٦ ومنها (٨١ فرح المخلفون بمقعدهم خلاف رسول الله وكرهوا أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله) الاية

(م ٤) وصف كثير من رؤساء الدين من أهل الكتاب بأكل أموال الناس بالباطل تحذيراً من فعلتهم، ورفعا لقدر كل مسلم أن يسف ويسفل الى دركتهم

(م ٥) الوعيد على كنز الاموال وعدم انفاقها في سبيل الله في الآيتين (٣٤ و ٣٥ يأيها الذين آمنوا ان كثيرا من الاحبار والرهبان ليأكلون أموال الناس بالباطل — الى قوله — فذوقوا ما كنتم تكنزون)

(م ٦) آية (٩٨ ومن الاعراب من يتخذ ما ينفق مغرما) وهم منافقوهم كبني أسد وغطفان كانوا يعطون الصدقات رياء وخوفا لا يرجون منها نفعا بتأييد الاسلام ولا ثوابا في الآخرة لعدم ايمانهم، فهي في نظرهم مغارم يلتزمونها ليصدقوا بما يظهرون من اسلامهم، وهكذا شأن المنافقين في الدين وفي القومية والوطنية لا يبذلون شيئا من مالهم لاجل المصلحة العامة ، بل للرياء والسمعة ، وهو في نظرهم غرامة

(م ٧) آية (٩٩ ومن الاعراب من يؤمن بالله واليوم الآخر ويتخذ ما ينفق قربات عند الله وصلوات الرسول) وهم بنو أسلم وغفار وجهينة وحسبك شهادة الله تعالى لهم بصدق إيمانهم وحسن نيتهم في نفقاتهم ، وحكمها عام

(م ٨) الترغيب في الصدقات بالتعبير عن قبولها والاثابة عليها باخذ الله عز وجل لها كما في الآية (١٠٤)

(م ٩) الترغيب فيها بقوله تعالى (١١١ إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم واموالهم بان لهم الجنة) الآية

(م ١٠) فضل النفقة في الجهاد قلت او كثرت وكون الجزاء عليها احسن الجزاء وهو نص الآية (١٢١) وتفسيرها في ص ٧٦ ج ١١

(القسم الثاني)

(أنواع الاموال الشرعية وأحكامها بالاجمال ومصارفها وفيه ١٤ مسألة)

(١) مال الجزية — وقد بينا معناها وتاريخها وأحكامها وشروطها في تفسير آية الجزية(٢٩) وهو في ص ٢٨١ — ٣٠٦ ج ١٠

(٢) أنواع الصدقات الواجبة المقدرة الموقوتة وهي النقدان من الذهب والفضة والتجارة في استغلالها والأنعام والزرع الذي عليه مدار الاقوات والركاز وهو المدفون في الارض يعثر عليه والمعدن (ص ٤٨٩ و٥٠٨ ج ١٠)

(٣) سهم الفقراء والمساكين وهل هما صنفان أو صنف واحد ينقسم بالوصف الى قسمين ؟ (راجع ص ٤٩٠ ج ١٠)

(٤) سهم العاملين على الصدقات من جباة وخزنة وكتبة (ص ٤٩٣)

(٥) سهم المؤلفة قلوبهم وهم ستة أصناف (ص ٤٩٤)

(٦) سهم الرقاب أي تحرير الرقيق باعانته على شرائه لنفسه المعبر عنه بالكتابة أو شرائه من مالكه وعتقه (ص ٤٩٧)

(٧) سهم الغارمين الذين ركبتهم ديون تعذر عليهم أداؤها ، والذين يغرمون

عمدا ما ينفقونه لاصلاح ذات البين ومنع الفتن الثائرة (ص ٤٩٨)

(٨) سهم الانفاق في سبيل الله على الغزاة والمرابطين الذين لا نفقة لهم من بيت المال، وما يدخل في عموم ذلك من المصالح العامة (ص ٤٩٩ — ٥٠٤

(٩) سهم ابن السبيل وهو المنقطع عن بلده في سفر لايتيسر له فيه الوصول الى ماله ان كان له مال فيعطى لفقره العارض مايستعين به على اتمام سياحته والعود الى بلده وأهله (ص ٥٠٤)

(١٠) الدليل على كون عروض التجارة مما تجب فيه الزكاة (ص ٥٠٨)

(١١) توزيع الصدقات على الاصناف كلهم أو بعضهم (ص ٥٠٩)

(١٢) الزكاة المطلقة والمعينة ومكانتها في الدين وحكم دار الاسلام ودار الكفر فيها والبلاد المذبذبة بين الدارين (ص ٥١١)

(١٣) لاتعطى الزكاة للمرتدين ولا للاباحيين والملاحدة (ص ٥١٣)

(١٤) التزام أداء الزكاة كاف لاعادة مجد الاسلام (ص ٥١٤)

﴿ فصل في فوائد الزكاة المفروضة والصدقات واصلاح الاسلام المالي للبشر ﴾

(وامتياز الاسلام بذلك على جميع الاديان)

وفيه مقدمة في منافع المال وارتباط جميع مصالح البشر الدنيوية والدينية به وشأنهم في حبه وكسبه وانفاقه وامساكه، وارشاد الدين فيه، وكون الاسلام وسطا بين اليهودية والمادية فيه، وغلو عباده من اليهود والافرنج في جمعه واستغلاله — وبين بدعة البلشفية الاشتراكية في مقاومة الشعوب والدول المالية وغلوها في ذلك وفي هدم الاديان. وتلخيص الاصلاح الاسلامي المالي في أربعة عشر أصلا (فتراجع في ص ٢٧ — ٣١ ج ١١)

(الفصل الثاني في أحكام القتال والمعاهدات والصلح وهي ٢٠ حكما)

(الحكم الاول) البراءة من المشركين ونبذ عهود المعاهدين منهم، ذلك أن مشركي مكة قد ناصبوا النبي ﷺ العداوة منذ دعا الى التوحيد وتبعهم سائر العرب فكانوا حربا له ولمن آمن به يقتلون كل من ظفروا به منهم أو يعذبونه اذا لم يكن له من يحميه من المشركين، ولما هاجروا من مكة صاروا يقاتلونهم في دار هجرتهم وكان الله ينصر رسوله والمؤمنين عليهم كما وعده . حتى اذا ما كثروا وصارت لهم شوكة اضطر المشركون الى عقد أول صلح معهم في الحديبية فعاهدوهم سنة ست للهجرة على السلم والامان مدة عشر سنين ولم تلبث قريش مع أحلافها من بني بكر أن غدروا ونقضوا العهد، فكان ذلك سببا لفتح النبي ﷺ مكة سنة ثمان ، ثم جمع المشركون جموعهم لقتاله في حنين والطائف فنصره الله عليهم ، وأمره في السنة التالية بأن ينبذ للمشركين عهودهم ويتبرأ منهم في موسم الحج (ص ١٩ ج ١٠)

(الثاني) أذان المشركين (إعلامهم) بذلك أذانا عاما في يوم الحج الاكبر وهو عيد النحر الذي تجتمع به وفود الحاج من جميع القبائل في منى بحيث يعم هذا البلاغ جميع قبائل العرب في اقرب وقت ، لان الاسلام يحرم الغدر وأخذ المعاهدين على غرة. فكان لا بد من اعلامهم بذلك بما ينتشر في جميع قبائلهم ، وكانت تلك الوسيلة الوحيدة لعلم كل فرد منهم بعود حالة الحرب بينهم وبين المسلمين، وهذا من عدل الاسلام ورحمته لان المشركين لم تكن لهم دولة ولا رئيس عام يبلغهم ما يتعلق بشؤونهم ومصالحهم العامة فيكتفى بابلاغه مثل هذا كما هو المعهود في الدول الملكية أو الجمهورية المدنية، ولم يكن في عصرهم صحف منشرة عامة ولا آلات للاخبار البرقية تنشر مثل هذا البلاغ

(الثالث) منحهم هدنة اربعة اشهر يسيحون في الارض حيث شاؤا آمنين مطمئنين أحراراً في سيرهم وإقامتهم وسائر اعمالهم الدينية والدنيوية ليتروا في أمرهم، ويتشاوروا في عاقبتهم . وفي هذا من رحمة القادر بعدوه ما يفتخر به المسلمون بحق. وهذه الاحكام صريحة في الآيات الثلاث الاولى من السورة (ص ١٤٩ ج ١٠)

(الرابع) وعظهم بأنهم إن تابوا من شركهم وما يغريهم به من عداوة المؤمنين

وقتالهم والغدر بهم فهو خير لهم ، لانهم لن يعجزوا الله في الارض وان يعجزوه هربا منها ، وقد وعد بنصر رسوله عليهم من قبل ان يكثر أتباعه ويبايعه انصاره ، وأنجز له وعده في جملة غزواته معهم ، وسبب هذا الوعظ ان الايمان امر اختياري طريقه الموصل اليه الدعوة ودلائل الاقناع ، وذلك قوله في بقية الآية الثالثة (فان تبتم فهو خير لكم) الخ وفيها من الإخبار عن المستقبل ماصدقه الواقع

(الخامس) استثناء بعض المشركين من نبذ عهدهم وهم الذين عاهدهم المؤمنون عند المسجد الحرام في الحديبية سنة ست ولم ينقصوهم من شروط العهد ومواده شيئاً ، ولم يظاهروا ويعاونوا عليهم احداً من أعدائهم المشركين ولا اهل الكتاب ، كما نقض اهل مكة العهد بمظاهرة أحلافهم بني بكر على احلاف النبي ﷺ بني خزاعة ، والامر باتمام عهدهم إلى نهاية مدته ، وتعليله بأنه من التقوى التي يحبها الله تعالى . وهذا نص الآية الرابعة بشرط ان يظلوا مستقيمين عليه كما بينه في الآية السابعة

(السادس) الامر في الاية الثامنة باستعمال جميع اسباب القتال معهم بعد انسلاخ أشهر الهدنة التي ضربت له وحرم فيها ، وهي القتل والاسر والحصر والقعود لهم في جميع المراصد لمراقبتهم ومنعهم من التجوال والتقلب في البلاد ، وهو يدل على شرعية استعمال ما يتجدد بين البشر من وسائل القتال الموافقة لاصول الاسلام العادلة الرحيمة — فان استعمل العدو ماهو مخالف لها قابلناه بالمثل لعموم قوله تعالى (ومن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم واتقوا الله)

(السابع) تخلية سبيل من يتوبون من الشرك بالنطق بالشهادتين ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ، لانهم بهذا يدخلون في الاسلام ، ومن قبل الصلاة والزكاة والتزمهما فلابد أن يلتزم غيرهما . وهذا نص الآية الخامسة

(الثامن) ايجاب إجارة من يستجير النبي ﷺ منهم — وفي حكمه الامام الاعظم ونائبه والقائد العام في حال الحرب — لاجل ان يسمع كلام الله ويقف على دعوة الاسلام وإبلاغه بعد ذلك المكان الذي يأمن فيه على نفسه من سلطان المسلمين

(التاسع) تعليل نبذ عهد المشركين السابق وعدم استئنافه معهم بالاسباب الآتية

(ا) انهم نقضوا عهد الحديبية بالغدر فلم يخبروا المؤمنين بذلك ليأخذوا اهبتهم

(ب) ان من دأبهم وشأنهم انهم إذا ظهروا على المؤمنين يرجحان قوتهم لايرقبون فيهم عهداً ولا ذمة ولا قرابة، بل يفتكون بهم بدون رحمة

(ج) انهم ينافقون ويكذبون عليهم في حال الضعف فيرضونهم بأفواههم، ويقولون بألسنتهم لهم ما ليس في قلوبهم ، وأكثرهم اي السواد الاعظم منهم فاسقون اى خارجون من قيود العهود والمواثيق والصدق والوفاء.

(د) انهم يصدون عن سبيل الله ويعادون الاسلام وأهله لاجل منفعة قليلة يتمتعون بها ويخافون ان تسلب منهم بالتزام شريعته التي تحرم اكل اموال الناس بالباطل كالربا والقمار والغصب والغزو لاجل الكسب وكانوا يستبيحون كل ذلك

(ه) انهم - على كونهم لايرقبون في مؤمن إلا ولاذمة في حال القوة ولا في حال الضعف - هم المعتدون على المسلمين بالقتال، فلا يمكن أن يظلوا معهم كذلك في كل حال

(و) انهم نكثوا عهودهم السابقة، فكذلك ينكثون غيرها فلا ثقة بها فتراعى

(ز) انهم هموا باخراج الرسول من وطنه ، بل هم الذين اضطروه الى الخروج هو وسائر من آمن معه ، وذلك بعد ان تواطؤا على قتله

(ح) انهم هم الذين بدؤا المؤمنين بالقتال أول مرة، وبقيت الحرب مستمرة ، فلما أنهت معاهدة الحديبية حالة القتال أعادوها بغدرهم فيها ونقضهم لها ، وهذه الاسباب الثمانية صريحة في الآيات ٧ — ١٠

(الحكم العاشر) وجوب قتال مشركي العرب كافة الا أن يسلموا وهو نص الاية الخامسة المعروفة بآية السيف ، وقوله في الاية ٣٦ (وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة) ووجهه ماعلم من جملة الايات في قتال مشركي العرب وهو عدم قبول الجزية منهم وعدم إقرارهم على السكنى والمجاورة للمسلمين في بلادهم مع بقائهم على شركهم لانهم لا أمان لهم ولا عهود فيمكن ان يعيش المؤمنون معهم بسلام

(الحكم ١١) تحريم ولاية الكفار من الآباء والاخوان كغيرهم على المؤمنين وكونها من الظلم العظيم في الآية ٢٣

(الحكم ١٢) حكم قتال أهل الكتاب بشرطه حتى يعطوا الجزية في الآية (٢٩)

ومن فروع هذه المسألة الفرق في القتال بين مشركي العرب وسائر الوثنيين. ومنها أن مافي هذه السورة من قتالهم وقتال أهل الكتاب انما هو في بيان غايته لا في بدايته ، وان أول ما نزل من التشريع في القتال آيات سورة الحج (٢٢ : ٣٩) ثم آيات سورة البقرة التي أولها ٢ : ١٩٠ (راجع آخر ص ٢٧٩ ج ١٠ وما بعدها ص ٢٨٩) وبليها آيات سورة الانفال فسورة آل عمران فسورة محمد فهذه السورة

(الحكم ١٣) وصف أهل الكتاب الذين بين حكم قتالهم هنا بأربع صفات سلبية هي علة عداوتهم للاسلام ووجوب خضوعهم لحكمه ليأمن اهله على أنفسهم وحرية دينهم معهم (فيراجع تفسير آية الجزية في ص ٢٨١ وما بعدها)

(فصل في حقيقة الجزية لغة وشرعا وتاريخها وشروطها وأحكامها وسيرة الصحابة فيها) ص ٢٩٠ — ٣٠٦ ج ١٠

﴿استطراد في حقيقة معنى الجهاد والحرب والغزو وإصلاح الاسلام فيه﴾ ص ٣٠٦ — ٣١٢ ج ١٠

﴿ فصل في دار الاسلام والعدل . ودار الحرب والبغي ، وحقوق الاديان والاقوام في هذا العصر ﴾ ص ٣١٣ — ٣٢١ ج ١٠

(الحكم ١٤) ابطال النسيء في الاشهر لاجل القتال وكونه تشريعا جاهليا وهو نص الآية ٣٧

(الحكم ١٥) النفير العام ، وهو مايكون القتال به واجبا بشرطه على الاعيان كما فصل في الآيات ٣٨ و ٣٩ و ٤١ وأما النفير الخاص فهو في الاية ١٢٢

(الحكم ١٦) الاستئذان في التخلف عن الجهاد بالمال والنفس من علامات النفاق ومنافيات الايمان بالله واليوم الآخر كما ترى في الآيتين ٤٤ و ٤٥ وما قبلهما وبعدهما من أحوال المنافقين وتتمة ذلك في الآيات ٨٦ — ٩٣

(الحكم ١٧) وجوب مجاهدة الكفار والمنافقين في المعاملات المدنية والادبية وهم الخاضعون لأحكام الاسلام كما في الآية (٧٣)

(الحكم ١٨) الاعذار المبيحة للتخلف عن الجهاد في قوله تعالى (٩١ ليس على الضعفاء ولا على المرضى) الى آخر الآية ٩٣

(الحكم ١٩) وجوب بذل الانفس والاموال في القتال المشروع لاعلاء كلمة الله وهي الحق والعدل باشتراء الله إياهما من المؤمنين بأن لهم الجنة ، وهو نص الآية ١١١ وتقدم تحريم الفرار من الزحف في سورة الانفال

(الحكم ٢٠) قتال الاقرب فالاقرب من الكفار الحربيين وهو نص الآية ١٢٣

﴿الفصل الثالث﴾

في القواعد والاصول السياسية والحربية المأخوذة من المسائل والاحكام السابقة

وهي ١٣ أصلا

(١) جواز البراءة من العهود ونبذها للعاهدين لدفع المفاسد المترتبة على بقائها . وهو في الآيتين الأولى والثانية من السورة

(٢) عقد المعاهدات مع الدول والأمم من حقوق الامة لأن لها غنمها وعليها غرمها ، وإنما يعقدها الامام أو نائبه من حيث إنه هو الممثل لوحدة الامة . وهو منطوق إسنادها الى المؤمنين في قوله في الآية الأولى (عاهدتم من المشركين) مع العلم بأن الذى تولى العقد وكتب باسمه في الحديبية هو النبي ﷺ

(٣) نبذ المعاهدات يجب أن يذاع وينشر بحيث يعرفه المخاطبون بالعمل به كما أمر الله بالاذان به يوم الحج الاكبر ، والاذاعة تختلف باختلاف الازمنة والامكنة وأحوال البشر في حضارتهم وبداوتهم

(٤) وجوب الوفاء بالمعاهدة ما دام الطرف الآخر من الاعداء يفي بها ولا ينقص منها شيئاً كما ترى في الآيات ٤و٧و١٢و٣ إكمالا لما تقدم في سورة الانفال

(٥) المعاهدة الموقوتة تنتهي بانتهاء مدتها بنص قوله تعالى (فأتموا اليهم

عهدهم الى مدتهم) وقوله — (فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم)

(٦) ان القبائل والشعوب التي ليس لها دين ولا شرع يحرم عليها نقض العهود وجرب عليها نكثها للايمان لا يجب التزام معاهداتها السابقة ولا تجديد ما انتهت مدته منها كما تراه مفصلا في الآيات الثلاث عشرة الأولى من السورة ، ودول الافرنج تعمل بهذه القاعدة فلا تعقد المعاهدات الا مع الدول المنظمة التي تلتزم الشرائع والقوانين الدولية

(٧) الهدنة بين المحاربين مشروعة وللمسلمين أن يبدأوا بها اذا اقتضت ذلك المصلحة ومنها الرحمة بالمشركين فيما لا يضر المؤمنين ، وهو نص قوله تعالى في الآية الأولى (فسيحوا في الارض أربعة أشهر)

(٨) تأمين الحربي بالاذن له بدخول دار الاسلام جائز للمصلحة فاذا استأمن لأجل سماع كلام الله أو الوقوف على حقيقة الاسلام وجبت إجارته ثم إبلاغه مأمنه عند الخروج من دار الاسلام ، وهو في الآية السادسة

(٩) انتهاء قتال مشركي العرب منوط بالدخول في الاسلام ومفتاحه التوبة من الشرك والتزام أحكام الاسلام وأهمها ركنا الصلاة والزكاة

(١٠) انتهاء قتال أهل الكتاب ومن في معناهم يناط بالاسلام أو باعطاء الجزية مع الخضوع لأحكام شرعنا كما ترى في آية الجزية ٢٩ وفي تفسيرها بيان حكم سائر الملل

(١١) النفير العام الذى يكون به الجهاد فرضاً على الاعيان في الآية ٤١ وترى في تفسيرها ما تكون به فرضيته ، وما يكون به فرض كفاية

(١٢) امتناع نفر المؤمنين كلهم للجهاد في غير حال النفير العام في الآية ١١٦

(١٣) العجز عن القتال أو عن الخروج اليه عذر في التخلف عنه وتجد بيان أنواعه الشخصية والمالية في الآيات الثلاث ٩١ — ٩٣ وهي تختلف باختلاف أحوال الزمان والمكان والاستعداد للقتال

الباب الخامس

(في شؤون الكفار والمنافقين وحكم الاسلام عليهم وسياسته فيهم وفيه فصول)

(الفصل الاول في ذم القرآن للكفار والمنافقين ونزاهته فيه عن السب والشتم)

(تنبيه وتمهيد)

الذم الوصف بالقبيح ، والسب والشتم ما يقصد به التعيير والتشفي من الذم سواء كان معناه صحيحاً واقعاً أو افكا مفترى ، والقرآن منزه عن ذلك ، قال تعالى (٦:١٠٨ ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدواً بغير علم) فنهى عن سب آلهة الكفار ومعبوداتهم ومنها الاصنام ، وقال النبي ﷺ « المستبان شيطانان يتهاتران ويتكاذبان » رواه أحمد والبخاري في الادب المفرد من حديث عياض بن حمار بسند صحيح . فما في القرآن من ذم الكفار والمنافقين بيان لحقيقة حالهم وقبح أعمالهم ، وما يعقبها من الفساد والضرر بهم وسخط الله تعالى عليهم ، واستحقاقهم لعقابه ، وبعدهم من رحمته وثوابه ، بقصد الانذار والوعظ ، لاجل التنفير والزجر ، ولذلك تراها موجهة اليهم بوصفهم أو الى وصفهم العام : المشركين ، الكافرين ، المنافقين ، الفاسقين ، الظالمين ، المجرمين ، المفسدين . أو الخاص بطائفة منهم كبعض الاحبار والرهبان لا كلهم دون الاشخاص المعينين باسمائهم وألقابهم ، مهما يكن من شدة كفرهم وايذائهم للنبي ﷺ والمؤمنين كعبد الله ابن أبي بن سلول رئيس المنافقين الذي كان شرهم وأجرأهم على الضرر ، فقد كان ضرره في المدينة أشد من ضرر أئمة الكفر والشرك في مكة (كابي جهل)

ومن اطلع على شيء من هجاء العرب وسبابهم البذي ، وقذعهم الفاحش أدرك نزاهة القرآن ، وعلوه عن مثل بذاءتهم في الكلام

ويستثنى من هذه القضية الكلية في ذم الشخص المعين من أعداء الاسلام والرسول (ص) ما نزل في ذم أبي لهب وامرأته في صورة وجيزة لما بيناه من حكمة ذلك في قصة ابراهيم مع أبيه آزر والاستطراد إلى آباء الانبياء وأولي قرباهم

وما صح في الاحاديث في أبوي النبي ﷺ وعميه أبي طالب وأبي لهب ، لاثبات قاعدة عظيمة في الفرق بين دين الله تعالى على ألسنة أنبيائه ورسله والاديان الوثنية ، وهي أن دين الله تعالى مبني على أن مدار السعادة والنجاة من عذاب الآخرة والفوز بنعيمها انما هو الايمان الصحيح والاعمال الصالحة التي تتزكى بها الانفس وتكون بصفاتها العالية أهلا لجوار الله تعالى ورضاته . وأن الاديان الوثنيه مبنية على أن السعادة والنجاة والفوز إنما تكون بوساطة بعض المخلوقات التي توصف بالولاية والقداسة أو النبوة ويدعى لها التأثير في النفع والضر بأنفسها أو بالشفاعة عند الله تعالى وكونها تحابي بشفاعتها ووساطتها أولي القرابة منها والمتقربين اليها بالمدح لها والاستغاثة بها ودعائها من دون الله أو مع الله عز وجل

وقد كان ابو لهب اغنى بني هاشم ومن اكثر المشركين غروراً بمالهوثروته ونشبه ونسبه وكان بهذا الغرور اول من جاهر بعداوة ابن اخيه (محمد رسول الله صلوات الله وسلامه عليه) محتقراً له لانه كان هو وابوه الذي لم يدركه وعمه الذي كفله بعد جده افقر بني هاشم ، وقال له حين جمع عشيرته وبلغهم دعوة ربه امتثالا لامره (وانذر عشيرتك الاقربين) : تبالك سائر اليوم ألهذا جمعتنا ؟ وكان يقول لقريش : خذوا على يديه ، قبل أن تجتمع العرب عليه . وكان أشد المشركين صدا للناس عنه وتكذيباً له كلما دعا أحداً منهم إلى الاسلام ، وكان كلامه مقبولا عندهم أكثر من كلام سائر الرؤساء الذين جاهروا بعداوته كابي جهل وعقبة بن أبي معيط وأبي سفيان بن حرب لقرابته ، وكذلك كانت امرأته أم جميل أخت أبي سفيان مسرفة في عداوته وذمه والصد عن دعوته بالنميمة ونقل الاخبار الكاذبة عنه لتبغيضه للناس ، وهو المراد من كنيتها « حمالة الحطب » كما هو معروف عند العرب . وروي انها كانت تجمع الحطب الشائك وتلقيه في طريقه بالفعل ، ومع هذا كله لم تكن السورة التي نزلت فيه الادعاء عليه بالتباب وهو الخسار المفضي إلى الهلاك أو اخبارا به ، وبكونه لا يغني عنه ماله الكثير وما كسبه من الجاه والولد شيئاً — في مقابلة قوله للرسول ﷺ تبا لك سائر اليوم — فهو إخبار بعاقبة أمرهما وموتهما على كفرهما ، وخسرانهما سعادة الدنيا والآخرة ، وقد صدق

خبر الله ووعيده له، فهو قد مات بعد وقعة بدر التي ساعد عليها بماله، آسفاً لعجزه عن الخروج اليها بنفسه، فذاق وبال امره بخذلان اقرانه من صناديد قريش ورءوس الشرك، وخسران ماله الذي أنفقه فيها مصداقا لقوله تعالى (ان الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله فسينفقونها ثم تكون عليهم حسرة ثم يغلبون) ورأي بمصداقها مبادىء عز الاسلام ونصره. مات بعدها بأيام قليلة بالعدسة شر ميتة، وترك ميتا حتى أنتن، ثم استؤجر بعض السودان حتى دفنوه. وكان فجع بعد نزول السورة بولده عتبة الذي كان يعتز به، افترسه أسد في طريق الشام، ولو أسلم كما أسلم أخوه وثانيه في جمع المال (العباس رضي الله عنه) لرأى مثل مارأى هو وذريته من عز الاسلام، وصدق ابن أخيه عليه أفضل الصلاة والسلام، في وعده لهم بأن كلمة «لا إله إلا الله» تجمع عليهم العرب، وتدين لهم بها العجم.

ذكرت هذا التنبيه الطويل لبيان غلط بعض العلماء في قولهم إن القرآن اشتمل على سبهم وسب آلهتهم، وتفنيداً لما يهذي به بعض ملاحدة الكتاب في المقارنة بين أدبه والأدب الجاهلي. وما روي من قول رءوس المشركين للنبي ﷺ لقد سببت الآباء وعبت الدين وسفهت الاحلام وشتمت الآلهة - فذكر السب والشتم فيه مبالغة في الانكار على أنه مرسل ضعيف السند وفيه رجل مبهم. وهاك ماوصف الله تعالى به أعداءه وأعداء رسوله والمؤمنين من هؤلاء المنافقين والكافرين في هذه السورة وهو أشده.

﴿ شواهد ذم القرآن النزيه للكفار والمنافقين ﴾

(١-٤) وصف المشركين في الآيات (٨ و ٩ و ١٠) بأنهم لا يرقبون ولا يراعون في أحد من المؤمنين إلا ولا ذمة، حتى قطعوا أرحامهم بهم خلافا لعاداتهم في عصبية النسب، وأنهم يصدون عن سبيل الله، وأن اكثرهم فاسقون وأنهم هم المعتدون.

(٥) قوله تعالى في منعهم عن عمارة المسجد الحرام وغيره ومن التعبد فيه (١٧ ماكان للمشركين أن يعمروا مساجد الله شاهدين على أنفسهم بالكفر، أولئك حبطت أعمالهم وفي النار هم خالدون)

(٦) قوله تعالى (٢٨ إنما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا) وكانت نجاستهم معنوية وهي الشرك وخرافاته ، وحسية اذ كانوا يأكلون الميتة ولا يدينون بالطهارة من النجاسة ولا الحيض والجنابة

(٧ ـ ١٠) وصف كفار أهل الكتاب في الآية (٣٠) بأنهم باتخاذ ابن الله سبحانه يضاهئون قول الذين كفروا من قبلهم كوثني قدماء الهند والمصريين وقوله (قاتلهم الله أنى يؤفكون) ووصفهم في الآية (٣١) بأنهم اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله ، وفي الآية (٣٢) بأنهم يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم أي بكلامهم الباطل في الصد عن الاسلام ـ وفي الآية (٣٤) بأن كثيراً من أحبارهم ورهبانهم يأكلون أموال الناس بالباطل ويصدون عن سبيل الله . وكل هذه الصفات ظاهرة معروفة في تاريخهم الماضي وسيرتهم في هذا الزمان ، ومن دقائق الصدق في القرآن الحكم في مثل هذا على الكثير منهم دون الجميع كما قال في المشركين (وأكثرهم فاسقون) ولم يعهد مثل هذا التحري في كلام البشر

وأما وصفه لشرور المنافقين وذمهم فيها فنلخصه فيما يأتي تابعاً في العدد لما قبله

(١١) ذكر في استئذان المنافقين واعتذارهم عن الخروج إلى غزوة تبوك وبيان ما يكون شأنهم لو خرجوا من ابتغاء الفتنة والافساد بين المؤمنين بالتثبيط وغيره ولم يزد فيها على قوله فيهم (والله عليم بالظالمين) وقوله (وإن جهنم لمحيطة بالكافرين (راجع الآيات ٤٢ — ٤٩)

(١٢ و١٣) تعليل عدم قبول نفقاتهم في الآية ٥٣ بفسقهم وقوله بعده (٥٤ وما منعهم أن تقبل منهم نفقاتهم إلا أنهم كفروا بالله وبرسوله ولا يأتون الصلاة الا وهم كسالى ولا ينفقون الا وهم كارهون)

(١٤ و١٥) وصفهم بعد اثبات استهزائهم فيما بينهم بالله وآياته ورسله واعتذارهم عنه بقولهم « انما كنا نخوض ونلعب » بأنهم كفروا بعد ايمانهم وأنهم كانوا مجرمين ثم قال بعد ذكر صفاتهم العامة من الآية ٦٧ (نسوا الله فنسيهم ان المنافقين هم الفاسقون) اي الخارجون من محيط هداية الدين وسلامة الفطرة

(١٦) قوله في لمزهم وعيبهم للمتطوعين من المؤمنين في الصدقات وسخريتهم

منهم في الآية ٧٩ (سخر الله منهم ولهم عذاب اليم) وهذا التعبير يسمي بالمشاكلة اي عاقبهم بمثل جرمهم فجعلهم سخرية للمؤمنين بما فضح به نفاقهم الذي كانوا يخفونه

(١٧) قوله في تعليل عدم غفران الله لهم (٨٠ ذلك بانهم كفروا بالله ورسوله والله لا يهدي القوم الفاسقين) وقوله في هذا المعنى (٨٤ ولا تصل على أحد منهم مات أبداً ولا تقم على قبره انهم كفروا بالله ورسوله وماتوا وهم فاسقون) وقد نزل هذا في زعيمهم عبد الله بن أبي بن سلول ولكن جعل حكم النهي عاما

(١٨ و ١٩) أشد ماوصفهم به في الآية (٩٥) أنهم رجس وانه كلما نزلت سورة من القرآن زادتهم رجسا إلى رجسهم، حتى ماتوا على كفرهم كما في الآية ٢٥ وانهم عند نزولها ينصرفون من مجلس النبي ﷺ عند غفلة المؤمنين عنهم ثم قال (صرف الله قلوبهم بانهم قوم لا يفقهون) أي صرف الله قلوبهم عن الاهتداء بها بسبب انهم لا يفقهون ما فيها من البينات والهدى بمقتضى سنته في ارتباط الاسباب بمسبباتها وهذا آخر ماذكروا به في هذه السورة من الآية ١٢٧

فانت ترى ان كل ما وصفوا به بيان لحقيقة حالهم بأنزه تعبير يدل عليه مقرونا بتلك الاعمال القبيحة والاخلاق السافلة والسرائر التي هي شر منها — وأن المراد بوصفهم التنفير منه لاعداد من فيه استعداد لقبول الحق بالرجوع اليه وقد تاب أكثرهم ولله الحمد

﴿ الفصل الثاني ﴾

(في المنافقين وصفاتهم واعمالهم وسياسة الاسلام فيهم)

النفاق خلق رديء ووصف خبيث تتلوث به الانفس الدنيئة الفاسدة الفطرة فلا يرى اهلها وسيلة الى مطامعهم في المال ومطامحهم الى الجاه الا الكذب والرياء، ولقاء الناس بالوجوه المختلفة، والتصنع والخداع ولين القول، كما قال تعالى فيهم (واذا رأيتهم تعجبك اجسامهم وان يقولوا تسمع لقولهم) وهم يوجدون في كل شعب وكل قبيلة، لا تخلو منهم بادية ولا حاضرة. والنفاق قسمان: خاص وعام، فالخاص هو الشخصي الذي يحاول صاحبه لقاء كل أحد بما يرضيه

عنه ويحببه اليه ولاسيما الحكام وأصحاب الجاه والمناصب والثراء الذين يرجى الانتفاع منهم او يخشى ضررهم . فهو يلبس للصالحين منهم لباس التقوى والصلاح ، ويخلع للفساق جلباب الحياء ، ويفرغ على المستكبرين حلل الاطراء ، وهو اهون النفاقين

واما النفاق العام فهو مايكون في الدين والدولة ، وخيانة الامة والملة ، وما وجد النفاق في عهد الرسول ﷺ الا بعد الهجرة ، لما صار للاسلام قوة ودولة ، اذ اسلم اكثر الانصار بظهور نور هذا الدين القويم لهم ، ولم يكن لهم مصلحة دنيوية تحجب هذا النور عن بصائرهم ، او تحملهم على مكابرة الحق وجحوده ، كبراء قريش المغرورين بثروتهم الواسعة ، وجاههم في العرب بسدانة البيت الحرام ، واستكبارهم على سائر الناس ، واسرافهم في التمتع بالسكر والزنا واكل الربا والشهوات ، فكانوا يرون أن الاسلام يساوي بينهم وبين سائر الناس في جميع الحقوق ، ويفضل الفقير المتقي لله تعالى على الغني المسرف في الفسوق ، ويقتص للسوقة من الامراء والملوك ، ويحقر المتكبرين ، ويكرم المتواضعين ، ويزدري الظالمين والفاسقين ، فيسلبهم بهذا جميع مايمتازون به على دهماء الناس . ولهذا كان اكثر من اهتدى به في مكة الفقراء وبعض اصحاب الفطرة السليمة والعقول الحرة من الطبقة الوسطى وكان اعلاهم فطرة وأزكاهم نفسا أبوبكر الصديق وسائر العشرة الكرام المبشرين بالجنة

آمن بعض الاوس والخزرج أولا بلقاء النبي ﷺ في موسم الحج ودعوا قومهم الى الاسلام بعد عودتهم الى المدينة فصادفت دعوتهم رواجا لقوة المقتضي وهو التوحيد وفضائل الاسلام ، فلما كثروا هاجر الرسول ﷺ اليهم اذ عاهده نقباؤهم في منى على نصره ومنعه (اي حمايته والذب عنه) مما يمنعون انفسهم وأهليهم ، ومن المعقول ان يكون نور الاسلام ليظهر لكل فرد منهم على سواء ، وان يكون منهم من اضطر الى الدخول فيما دخل فيه قومهم مواتاة لهم ، مع عدم وجود نظام لديانتهم الوثنية يرتبط به بعضهم ببعض فيقيمونه ويذبون عنه ، فكان منافقو المدينة من هؤلاء ومن حولهم من قبائل الاعراب الذين لم يعقلوا الاسلام ، كاسد وغطفان .

وكان هنالك يهود كثيرون يقيم اكثرهم في حصون لهم بالقرب من المدينة كبني قريظة وبني النضير ، وقد عاهدهم النبي ﷺ على حريتهم في دينهم وأنفسهم وأموالهم، ولكنهم كانوا ينقضون عهده ويظاهرون عليه المشركين كلما جاؤا لقتاله ، بل كانوا يغرونهم ويحرضونهم عليه، فكانوا في اظهار الوفاء بعهده منافقين ، وكان لهم احلاف من عرب المدينة فحافظ على مودتهم منافقوها بالسر كما بينا ذلك كله في محله

فكانت سياسة الاسلام في الفريقين أن من اظهر الاسلام يعامل كما يعامل سائر المسلمين ، لان قاعدة الاسلام ان الحكم على الظواهر، وان الله تعالى وحده هو الذي يحاسب ويعاقب على السرائر ، وأن من حافظ على الوفاء بعهده من أهل الكتاب يوفى له ، وكان اليهود ينقضون عهدهم مع النبي ﷺ سرا ، فاذا ظهر شيء من خيانتهم وغدرهم اعتذروا عنه ، حتى اذا ما افتضح امرهم حاربهم ﷺ وأجلاهم عن البلاد ، كما ترى في تفسير الآيات ٥٥ ـ ٥٨ من سورة الانفال (ص ٤٨ ـ ٦٠ ج ١٠)

وقد قص الله علينا في سورة الحشر ماكان بين اليهود والمنافقين من الاخاء والولاء وانه لاخير فيه لاحد منهما على ان اليهود ظاهروا المشركين على النبي ﷺ ولكن المنافقين لم يفوا لليهود بما وعدوهم به من نصرهم اذا هم اظهروا عداوتهم لان المنافق القح دون المتدين الكافر همة وشرفا وخلقا . قال تعالى (٥٩: ١١ ألم تر الى الذين نافقوا يقولون لاخوانهم الذين كفروا من اهل الكتاب : لئن اخرجتم لنخرجن معكم ولا نطيع فيكم أحدا أبدا ، وإن قوتلتم لننصرنكم والله يشهد إنهم لكاذبون ١٢ لئن اخرجوا لا يخرجون معهم ، ولئن قوتلوا لا ينصرونهم ، ولئن نصروهم ليولن الادبار ثم لا ينصرون)

كان سبب معاهدة النبي ﷺ لليهود واقراره إياهم على دينهم أن الاسلام دين حرية وعدل ، ودعوته قائمة على البرهان والحجة ، ولذلك منع المسلمين من أخذ أولادهم الذين تهودوا وانضموا الى اليهود بالقوة ، وأمرهم بأن يخيروهم اذ نزل فيهم قوله تعالى (لا اكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي)

وقد تقدم ان سبب معاملة المنافقين بظاهر اسلامهم هو ان امر السرائر لله وحده ، فهو الذي يعلمها ، وهو الذي يجازي عليها ، ولا يباح لحاكم ولا لنبي أن يحكم على انسان بأنه يسر الكفر في نفسه ولا أن يتهمه بذلك ويعاقبه عليه . ولا يثبت الكفر على من ظاهره الاسلام الا باقرار صريح منه أو صدور قول أو فعل يدل عليه دلالة قطعية لا تحتمل التأويل كتكذيب القرآن أو النبي ﷺ او جحود كونه خاتم النبيين لا نبي بعده ، والشرك بالله بدعاء غيره ، وغير ذلك مما هو مجمع عليه معلوم من الدين بالضرورة لا يقبل فيه تأويل ، كجحود فرضية الصلاة والزكاة والصيام والحج ، أو استحلال الزنا والربا وشرب الخمر

وأما حكمة ذلك وفائدته فهي أن من يلتزم شعائر الاسلام وأحكامه ولو بغير ايمان يقيني فانه يرجى له بطول العمل ان ينشرح صدره للايمان ويطمئن به قلبه ، ويوقن به عقله ، وإلا كانت استفادته وافادته للامة دنيوية فقط

(فان قيل) إن مقتضى حرية الدين التي امتاز بها الاسلام في معاملة أهل الكتاب - إذ أقرهم على العمل بدينهم حتى فيما بين لهم أنهم خالفوا فيه ما جاء به رسلهم - ان يسمح للمنافقين بان يظهروا كفرهم (قلنا) ان الجمع بين اظهار كفرهم وحسبانهم من المسلمين لهم ما لهم من الحقوق وليس عليهم ما عليهم من الواجبات ، تناقض لا يقول به عاقل ، ولا يحكم به عادل ، ومثلهم فيه كمثل من يسمح له بحقوق الجنسية السياسية الوطنية ولا يطالب بالخضوع لقوانينها ، ولا يعاقب على انتهاكها ومخالفة أحكامها ، وانما تكون حرية الدين المعقولة لاهله في دائرة محيطه بأن لا يحاسب أحدهم أحد على عقيدته ووجدانه فيه ، ولا اجتهاده في فهمه ، الا من طريق البحث العلمي ، وليس منها ان يخالف اصوله القطعية التي لا يكون المسلم مسلما بدونها ويعد مع ذلك مسلما ، وإذاً ليس لاحد أن يطالب حكومته المتدينة بالسماح له بالخروج على دينها ، كما لا يصح له أن يطالبها بالسماح له بالخروج على قوانينها ، فتكون حريته هنا متعارضة مع حريتها هي وحرية أمتها

(فان قيل) ان القرآن قد فضح بعض المنافقين في هذه السورة وحكم بكفرهم ولم ينفذ النبي ﷺ عليهم أحكام المرتدين عن الاسلام ، بل بقي يعاملهم هو وأصحابه

معاملة المسلمين (قلنا) ان ما بينه الله تعالى من حال المنافقين انما كان وصفا لأناس غير معينين بأشخاصهم، انذاراً وزجراً لهم ليعرفوا حقيقة حالهم، ويخشوا سوء مآلهم، عسى أن يتوب المستعدون للتوبة منهم ، وقد تاب الكثيرون منهم، بما ظهر لهم من إخبار القرآن عنهم، بما لا يعلمه إلا الله تعالى من أمرهم

و كان الذين عرف النبي ﷺ بعض أصحابه أشخاصهم قليلين جدا كالذين هموا باغتياله ﷺ بتشريد راحلته في عقبة في الطريق منصرفهم من تبوك ليطرحوه منها ، وقال بعضهم لبعض : لئن كان محمد صادقا لنحن شر من الحمير. وفيهم نزل (٧٤ يحلفون بالله ماقالوا . ولقد قالوا كلمة الكفر وكفروا بعد اسلامهم وهموا بما لم ينالوا) ولما استأمره أصحابه بقتلهم قال « اكره أن يتحدث الناس ويقولوا ان محمداً قد وضع يده في أصحابه » أي في رقابهم بقتلهم، وهذا أكبر منفر عن الايمان، فان كثيرا من الناس كان يستحسن هذا الدين ويفضله على ما كانوا عليه من الشرك في أحكامه وآدابه لذاتها، قبل أن تقوم عندهم الحجة على اليقين بكونه وحيا من الله تعالى، فيدخلون فيه، ثم بعد زمن قليل أو كثير من معرفته التفصيلية تطمئن قلوبهم بالايمان اليقيني، ومنهم من كان يدخل فيه تبعا لأكثر قومه من غير نظر الى تفضيله لقلة علمه بدعوته، وكل هؤلاء يقبل إسلامهم ويعتد به شرعا، وفيهم نزل قوله تعالى من سورة الحجرات (قالت الاعراب آمنا. قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الايمان في قلوبكم . وان تطيعوا الله ورسوله لا يلتكم من أعمالكم شيئا) ولو سمع أمثال هؤلاء ان النبي ﷺ يقتل بعض من اتبعه وصحبه لظهور شيء يدل على عدم ايمانهم في الباطن، أو لاعلام الله تعالى إياه بما في قلوبهم، لنفروا من الاسلام وخافوا عاقبة الدخول فيه

وثم مفسدة أخرى في هذه الاشاعة وهي أن المنافقين والكفار يذيعون فيها ماشاؤا من التهم الباطلة والافك المفتري، كزعمهم أنه انما قتل من ظهر لهم منه مادلهم على بطلان دينه بعد أن صدقوه وجاهدوا معه

على أن الله تعالى قال فيهم بعد وصفهم بالكفر بالقول وبالهم بشر نتائجه من الفعل (فان يتوبوا يك خيرا لهم وان يتولوا يعذبهم الله عذابا أليما في الدنيا والآخرة)

الآية ، فليراجع تفسير الآية وماقبلها من الامر بجهاد الكفار والمنافقين في(ص ٥٤٨ — ٥٥٨ ج ١٠)

ويلي هذا في السورة خبر الذي عاهد الله لئن أتاه من فضله ليصدقن(في الآيات ٧٤ — ٧٧) وما رووا في سبب نزولها خاصة وانه شخص يقال له ثعلبة، وانه بعد أن نزلت فيه الآيات تاب وأراد أن يؤدي زكاة ماله فلم يقبلها منه النبي ﷺ ثم لم يقبلها منه أبو بكر ولا عمر ولا عثمان من بعده، وانه هلك في خلافة عثمان . وقد بينا في تفسيرها أن في حديث سبب نزولها اشكالات في سنده وفي متنه فانه مخالف لاصل الشريعة القطعي المجمع عليه من العمل بالظاهر فهو باطل قطعاً بما فصلوه به تفصيلا(راجع ٥٥٨ — ٥٦١)

ويقرب منه في المعنى ماروي في الصحاح من نزول قوله تعالى (٨٤ ولا تصل على أحد منهم مات أبدا ولا تقم على قبره انهم كفروا بالله ورسوله وماتوا وهم فاسقون) وأنه في عبد الله بن أبي بن سلول زعيم المنافقين الاكبر وقد بينا في تفسيرها مافي الحديث من التعارض مع القرآن فراجعه (في ص ٥٧٣-٥٨١)

ومن المشكل في هذا الباب قصة مسجد الضرار في الآيات (١٠٧- ١١٠) فقد بين الله تعالى فيها انهم اتخذوه لأربعة أغراض منها الكفر وسائرها أقبح مقاصد أعداء الله ورسوله والمؤمنين . وقد أمر النبي ﷺ بهدمه فهدم ولم يأمر بقتلهم، وقد شهد الله بكذبهم فيما حلفوا عليه من حسن نيتهم . وسبب ذلك ان الذين بنوه للمقاصد الاربعة المذكورة في الآيات كانوا كما قال المفسرون اثني عشر رجلا من منافقي الاوس والخزرج أتباع أبي عامر الراهب الذي وعدهم بان يتوسل بنصرانيته الى قيصر الروم في الشام فيرسل معه جنداً يكفيهم أمر الرسول ومن اتبعه من المؤمنين ، ولكن صدقهم في ظاهر عملهم وما زعموه من حسن النية فيه كثير من المؤمنين وشاركوهم وصلوا معهم فيه ، وكان التمييز بينهم متعذرا، فصح أن يأتي في الفريقين قوله تعالى في المسلمين المستخفين من المشركين في مكة عام الحديبية (لو تزيلوا لعذبنا الذين كفروا منهم عذابا أليما)

والسبب الخاص لعدم عقاب أصحاب مسجد الضرار على الكفر الذي أثبته

النص الصريح أمران [أحدهما] أن الآيات في قصتهم قد بدئت بما يحتمل أن يكون ذكرهم فيها معطوفا على الذين أرجأ الله البت في أمرهم وجعل التوبة عليهم مرجوة وهو قوله تعالى (وآخرون مرجون لأمر الله إما يعذبهم وإما يتوب عليهم) والثاني ختم قصتهم بقوله تعالى (لا يزال بنيانهم الذي بنوا ريبة في قلوبهم الا أن تقطع قلوبهم والله عليم حكيم) فيظهر في معنى تقطع قلوبهم احتمال هو أحد الاقوال في تفسيره، وهو تقطعها من الاسف والحزن على ما فرط منهم، ووقوع هذا الاستثناء محتمل، واذاً يكون أقوى الادلة على توبتهم وأصدقها، ويكفي الاحتمال لمنع الحكم عليهم بالكفر

وجملة القول في هذا الباب ان سياسة الاسلام في المنافقين أن يعاملوا بحسب ظواهرهم وما يبدو من أعمالهم، وان للامام الاعظم أو عليه — ومثله نوابه من اولياء الامور — أن يعرّض في الخطب العامة والتصريحات الرسمية بتقبيح مايعلم من سوء أعمالهم والانذار بسوء عواقبها ليعدهم للتوبة منها، أو الحذر من إظهار مايضمرونه من الشر الذي يترتب عليه العقاب. وتتضمن هذه السياسة الاصول الآتية

﴿ الاصول الثلاثة في حرية الدين، ومعاملة المنافقين ﴾

١ ـ ان حرية الاعتقاد والوجدان مرعية لا سيطرة عليها للرؤساء الحاكمين، ولا للمعلمين والمرشدين، وانما لهؤلاء حق في التربية والتعليم، فليس لأحد أن يتهم إنسانا باضمار الكفر ولا بنية الخيانة لملته أو دولته، ولا بارادة السوء لقومه وأمته، ولا أن يعاقبه على ذلك بعقاب بدني ولا مالي، ولا بحرمانه من الحقوق التي يتمتع بها غيره من أفراد الامة

٢ ـ انه ليس لمن يضمر الكفر بالله أو بما جاءت به رسله أن يكون فتنة للناس باظهار ذلك لهم ودعوتهم اليه، أو الطعن في عقائدهم، أو إظهار ما ينافيها من قول أو عمل، وان لم يكن دعوة ولا طعنا، فان فعل ذلك وكان يدعي الاسلام يحكم بارتداده وخروجه من الملة، إن كان ما اظهره من الكفر صريحاً قطعياً مجمعاً عليه لا يحتمل التأويل، ويترتب عليه ماهو مقرر في الشرع من استتابته وعقابه إن لم يتب ﴿ ومنه منع التوارث بينه وبين المسلمين وفسخ نكاحه بالمسلمات، وعدم تشييع جنازته والصلاة عليه ودفنه في مقابر المسلمين) لان حرية كل احد في اعتقاده تقف

عند حد حرية غيره ، ولاسيما احترام عقائد الملة التي يعيش في ظل شريعتها ، وسائر شعائرها وعباداتها

وليعلم القاريء أن كثيراً من الفقهاء قد أسرفوا في أبواب الردة في المسائل التي يحكم فيها بالكفر المخرج من الملة ، وبنوا كثيراً منه على اللوازم البعيدة ، والمحتملة للتأويلات القريبة ، وما ورد في صفات المنافقين في هذه السورة حجة عليهم ، وان قال بعض العلماء المتقدمين : إن ما كان في زمن النبي ﷺ نفاقا لاينافي ظاهر الاسلام ، هو الآن كفر محض لاتقبل معه دعوى الايمان ، فهذا قول باطل ، فكتاب الله وسنة رسوله ﷺ هما الحجة في الدين ، والاهتداء بهما هو الواجب الى يوم الدين ، فيجب قبول قول كل من أظهر الاسلام ولم يصرح بما ينافيه بما لايحتمل التأويل ، ومما يحتمل التأويل احتمالا ظاهراً جميع المباحث العلمية المخالفة لظواهر النصوص كما هو مقرر في الاصول .

٣ - ان من ظهر منه شيء من أمارات النفاق العملي في الدين ، او الخيانة للامة والملة بما هو غير صريح ، مما لايعاقب عليه في الشرع بحد ولا تعزير ، فلولي الامر أن يعظه بالتعريض ، ثم بالتصريح والتكشيف ، وله أن يعاقبه بما يرجى أن يزعه عن غيه من التأديب ، كالحرمان من مظاهر التشريف ، او الازورار والتقطيب ، او التأنيب والتعنيف ، كما بيناه في تفسير (٧٣ جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم) ومنه حرمان النبي ﷺ للذين تخلفوا عن غزوة تبوك من الخروج معه الى غزوة أخرى بقول الله تعالى (٨٣ فان رجعك الله الى طائفة منهم فاستاذنوك للخروج فقل لن تخرجوا معي أبداً) الآية . ولكن الملوك المستبدين يقربون اليهم المنافقين فيزيدونهم فساداً ، ويجرؤن غيرهم بل يرغبونه في النفاق وخيانة الامة جهارا ، حتى إن المناصب الدينية المحضة صارت تنال بالنفاق ، ويذاد عنها أهل الصدق والاخلاص ، وإلى الله المشتكى ولاحول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم

﴿ انتهى بيان ما فتح الله به علينا من خلاصة هذه السورة ﴾

﴿ وكتب في أوقات متقطعة في سنة عسرة شديدة ﴾

﴿ وتم في ذي الحجة سنة ١٣٥٠ ﴾